

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن وتحديد معاني النبوة ومهام الأنبياء

د. طه جابر العلوانبي¹

المقدمة:

مما لاشك فيه أن الرسالة الخاتمة قد استوعبت تجارب النبوات كلها واستعرضت تاريخ الرسل مع أقوامهم وأنواع خطابهم والحوار والجدل الذي كان يدور بينهم وبين أقوامهم وتنوع خطابات الأنبياء وتعدد مضامينها وفقاً لعوامل الاستجابة والرفض والإقبال والصدود والقبول والإعراض ورسالة رسول الله ﷺ لم تكن بدعاً من ذلك. ولقد عرض القرآن الكريم الكثير من التجارب النبوية التي كانت في بعض الأحيان تواجه بالصدود والإعراض حتى إذا مات النبي أو فقد اتخذ الناس من قبره وثناً قدسوه وربما اتخذوه رباً أو إلهاً، فكان القرآن المجيد ثم رسول الله ﷺ شديدي الحساسية لهذا الأمر، فحرص القرآن الكريم على أن لا يتكرر هذا مع رسول الله ﷺ ومع قومه فمن هنا امتلأ القرآن الكريم بالآيات الكريمة التي تحدد المفاهيم بدقة وتضع الفواصل الدقيقة والكبيرة بين النبوة وهي من عالم الغيب والأمر والإلهية وهي من عالم الأمر والغيب كذلك لكي لا تكون هناك أية فرصة للخلط وتكرار أخطاء الأمم السابقة التي فقدت القدرة على تمييز الفوارق بعد طول الأمد وقسوة القلوب بين النبوة والرسالة والربوبية والشفاعة والألوهية والخالقية ومستويات الأمر والإرادة والمشيمة فأخطأت السبيل وضلت الطريق وحولت النبوات والرسالات إلى وسائل للضلال بدلاً من وسائل هداية. ولذلك فقد حرص القرآن الكريم في التأكيد على بشرية الرسول ﷺ وفي الوقت نفسه وجوب طاعته فيما يأتي به من الله عز وجل والتحذير من مخالفته خاصة في التحذير

¹ رئيس جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية، فيرجينيا. وساعد في إعداد هذا البحث: الباحثة زينب علواني التي جمعت النصوص من المصادر المختلفة وخرجت ما لا بد من تخرجه، وناقشت معنا اطروحاته، وتابعت بصبر شديد طباعته وقراءته علينا، وإعادة الطباعة بعد كل قراءة حتى استوى على سوقه بهذا الشكل الذي نرجو أن يكون نوعاً من الإضافة إلى الدراسات الخادمة للقرآن المجيد ولللسنة النبوية الشريفة.

من الخط الفاصل الدقيق الذي قد يؤدي إلى الخلط والإرباك بين متلقي الرسالة وبين صاحبها تبارك وتعالى وفي هذا

٢

وفي هذا الإطار نستطيع أن نقرأ سائر أحاديثه ﷺ خاصة التي سبقت انتقاله إلى الرفيق الأعلى على سبيل المثال: " حَدَّثَنَا سُرَيْجٌ قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ أَبِي ذَثْبٍ عَنْ سَعِيدِ الْمَقْبُرِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا وَلَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي"^٣ رواه أحمد"، وتحذيره صلوات الله عليه من تعظيم قبره والمبالغة في ذلك وتنبهه لذلك الخطيب الذي جمع بين اسمه واسم الله تعالى في ضمير واحد: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نُمَيْرٍ قَالَا حَدَّثَنَا وَكَيْعٌ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ رُفَيْعٍ عَنْ تَمِيمِ بْنِ طَرْفَةَ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ أَنَّ رَجُلًا حَطَبَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مَنْ يُطِيعُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَقَدْ غَوَى فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِئْسَ الْخَطِيبُ أَنْتَ قُلْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قَالَ ابْنُ نُمَيْرٍ فَقَدْ غَوَى رواه مسلم^٤، وجاء في مسند أحمد: حَدَّثَنَا وَكَيْعٌ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَعْنِي ابْنَ رُفَيْعٍ عَنْ تَمِيمِ بْنِ طَرْفَةَ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ أَنَّ رَجُلًا حَطَبَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مَنْ يُطِيعُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَقَدْ غَوَى فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِئْسَ الْخَطِيبُ أَنْتَ قُلْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ^٥.

كل ذلك من أجل أن لا تتكرر المأساة وتذهب أنوار النبوة وتحجب الهداية عن البشر ويكتفي الناس بالعواطف نحو الأنبياء والمشاعر الطيبة وطلب الشفاعة ويتجاوزون اتخاذ سننهم منهجاً لفهم وتطبيق رسالة الله ودينه وشرعه. والخط الفاصل الدقيق بين طريقة البداوة وطريقة التمدن في ذلك واضطراب الناس فيها. وقد أصاب هذه الأمة في فترة من الفترات فتنة زادت من عوامل فرقتها فمن أهل بادية يتحدثون عن رسول الله ﷺ وكأنه زعيم قبيلة لا يترددون بذكر اسمه المجرد عن وصف النبوة والرسالة وعدم قرنه بلفظ الصلاة والسلام عليه، وبين قوم يصفون عليه صفات هي جزء من صفات الإلهية والربوبية فيتوجهون إليه بكل شيء ويجعلون منه مثل ما يجعل أصحاب الأوثان

^٢ سنن ابن ماجه، كتاب الأطمعة، رقم الحديث: ٣٠٣٣.

^٣ رواه أحمد في مسند المكثرين رقم الحديث ٨٤٤٩.

^٤ أخرجه مسلم في كتاب الجمعة رقم الحديث: ١٤٣٨.

^٥ أخرجه أحمد في أول مسند الكوفيين رقم الحديث: ١٧٥٣٦.

من أوثانهم معبودين ليقربوهم إلى الله زلفى، ولو أن هذه الأمة تنبعت في فترات تاريخها اللاحقة كما تنبه أصحاب رسول الله ﷺ لأهمية المفاهيم لما وقعنا في كثير من الخلط الذي أدى إلى اضطراب كثيرين في مفهوم الحقيقة المحمدية والنبوة والرسالة الخاتمة ذلك الخلط الذي جعل من أبناء الأمة الواحدة شيعاً يكفر بعضها بعضاً دون سبب منطقي. ولذلك فإننا نرى ضرورة مراجعة وتحليل تلك المفاهيم ومعرفة الحدود والفواصل بينها لئلا يلبس على الناس دينهم ويستمر انقسامهم الذي ينتمي إلى مراحل تاريخية متقدمة. ولا نريد أن نستقرئ كل هذه المفاهيم، بل نريد أن نتناول منها نماذج يمكن أن تكون أمثلة للنماذج الأخرى التي نأمل أن يتم استقراؤها والبحث فيها وإدراك مغازيها ومقاصدها. فهذا بحث في "دراسات في السنة النبوية المشرفة" نهدف أن نصل منه وبه إلى تصور دقيق لدور "السنة النبوية" في بناء شخصية المسلم عقلياً ونفسياً، وكذلك في تأسيس مبادئ العمران الإسلامي، وبناء قواعده الحضارية، وإحداث النقلة النوعية في حياة الشعوب الأمية التي ما جاءها قبل عبد الله ورسوله مُحَمَّد صلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين من نذير ولا بشير.

الأنبياء والإصطفاء

إن الله تعالى اصطفى آدم وذريته وجعلهم خلفاء الأرض {وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال: إني أعلم ما لاتعلمون} (البقرة: ٣٠) وكأنه سبحانه أراد أن يبينه للملائكة بأنهم لم يكونوا يعلمون أن الهدف من هذا الاستخلاف ليس العبادة المجردة المشاهدة لعبادتهم وتسيبهم وتحميدهم الذي يأتي عن فطرة فطروا عليها وطبيعة هيئوا بمقتضاها لذلك، بل المقصود **خلافةً وابتلاءً وتدافعاً** يحص الناس فيها ليتبين الأحسن عملاً من هذا الخلق، والأصلح لورثة الأرض في الدنيا وورثة الجنة في الآخرة {ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون} (الأنبياء: ١٠٥). فهذا الإصطفاء مرتبط بعبادة لها مفهوم آخر يتعدى التسيب والتحميد والركوع وغيرها من الأفعال

^٦ اتلوا آيات سورة الأنبياء من ١٠٥-١١٠، وذلك إيماناً بأهمية ذكر جميع الآيات المتعلقة بموضوع معين دون الاختصار على الشاهد فحسب، لتفتح أمام القارئ آفاق التأمل والتفكير بالآيات متواصلة لما قد تؤدي به إلى فتوحات جديدة تساهم في تطوير مناهج التفكير والنظر في كتاب الله الكريم الذي لا تنقضي عجائبه.

التي تقوم بها الملائكة عبادة محضة، وتقديساً خالصاً إلى فعل العمران^٧، والقيام بحق الأمانة^٨ وأداء مهمة الاستخلاف^٩، لتحقيق الوفاء بالعهد^{١٠}.

يبدأ الإنسان خطواته الأولى على هذه الأرض بعقل أحيائي بسيط بدائي قادر على النظر الحسي الى الموجودات والظواهر الكونية وافترض قدرات خارقة فيها تفوق قدراته: فكان يتجه إلى الشمس والقمر، والمطر،.... ويشعر أنها كلها بالنسبة له أقوى وأكبر، وهو إليها أحوج فعليه أن يستمد منها قوته ويرفع إليها حاجاته، وهو يتوهم أنه في حاجة أو خوف أو رجاء منها كلها أو من بعضها وفي كل هذه الموجودات مصادر قوة. وهذا العقل البدائي الأحيائي ليس في مقدوره اكتشاف العلاقات النازمة بين هذه الأجزاء أو الأحداث أو الظواهر، ليكتشف من خلقها بكل ما يتصف به من صفات الكمال، لان عقله الأحيائي هذا وهو يتدرج من التفكير في الخلق للوصول إلى الخالق لم يتدرب بعد على ربط الجزئيات بالكليات، وإدراك العلاقة بين الشاهد والغائب عن حسه وإلا لما فضل الله تعالى إبراهيم على سائر البشر، واتخذة خليلاً وعده أبا الانبياء لذلك الاكتشاف الذي وصل إليه، فمط التفكير السائد آنذاك نمط أحيائي لم يكن ليعطي قدرة منهجية تمكن من إدراك العلاقات، وتبين الوحدة المنهجية في الكون.

فلم يترك الله تعالى الإنسان لهذه المعاناة، خاصة بوجود الشيطان كعامل غواية أبدي^{١١} في حياة الإنسان الذي عرض كفتي التعادل التوازني في الطبيعة الإنسانية الى الإختلال، فاصطفى من البشر أنبياء ورسلاً اختارهم من بين

^٧ هو المفهوم الخلدوني البديل لمصطلح الحضارة: فكل عمران حضارة ولا عكس: فالعمران بناء حضارة ربانية تلاحظ منها رؤية كلية للإنسان والحياة والكون، وتلاحظ في تركيبها القيم وغايات الحق من الخلق: أنظر: عبد الرحمن بن محمد (ابن خلدون)، مقدمة ابن خلدون، بيروت، دار القلم، ١٣٩٨هـ.

^٨ الأمانة مشتقة من قوله تعالى {إنا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا} (الأحزاب: ٧٢)، إذ بما يتضح أن الانسان مؤتمن على هذا الكون.

^٩ إشارة إلى آية الاستخلاف {وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة...} (البقرة: ٣٠)

^{١٠} إشارة الى آية العهد في سورة الاعراف: ١٧٢-١٧٤ {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم، قالوا: بلى، شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون، وكذلك نفصل الآيات لعلهم يرجعون}.

^{١١} كما جاء في قوله تعالى في سورة الحجر : ٢٦-٤٩.

عباده ليكونوا أسوة ونموذجاً في تطبيق شرائع الله تعالى قال تعالى ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، ذرية بعضها من بعض...﴾ (آل عمران: ٣٣-٣٤). فتدارك الله سبحانه برحمته الإنسان وعزز عقله البدائي الأحيائي ذلك بالنبوات والرسالات ليتلو عليه الأنبياء والمرسلون آيات الله، ويعلموه الكتاب والحكمة، ويدربوه على تزكية نفسه وتطهير ضميره، وإصلاح عمله، وتسديد مسيرته لتتقطع بذلك كل حججه وأعداره، وينطلق في تحقيق مهمته في التوحيد والتزكية والعمران على الوجه الأكمل، ويحصل على جزاءه على الوجه الأوفى الأتم في الآخرة. ﴿إننا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وأتينا داود زبوراً. ورسلاً قد قصصناهم عليك ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً، رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً، لكن الله يشهد بما أنزل إليك، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً﴾ (النساء: ١٦٣-١٦٦)، ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾ (الأحقاف: ٣٥).

وكما اختلط مفهوم النبوة والرسالة لدى أهل الكتاب فادرجوا فيها الإلهام والهواتف والتأملات التي تأتي للإنسان وهو في صلواته أو عبادته فضلوا بذلك وانحرفوا ولم يعودوا يميزون بين وحي يوحى وبين هذه الأمور التي قد تعرض لأي إنسان، فقد اختلط الأمر على بعض المسلمين في العصور المتأخرة وعصور الجهالة لدين الله وشرعه، فتوهوا أن الزعامة والذكاء والعبقرية الشخصية من المهام أو الصفات التي جعلت الناس في الماضي يطلقون على هذا النوع من القادة أنبياء ومرسلين في حين أنهم مجرد عباقرة، أو زعماء قوميين أو إقليميين جاءوا لإنقاذ أقطابهم وشعوبهم أو توحيدهم فسووا بذلك بين العبقرية والذكاء وهي صفات عامة مشتركة يتصف بها الناس كسباً أو موهبة وبين النبوة أو الرسالة وهي شأن من شؤون الغيب، ولا دخل للكسب الإنساني فيها، فليست هناك معاهد أو أماكن لتأهيل أنبياء أو رسل وليست هناك برامج إنسانية محددة لإيجاد أنبياء ومرسلين، بل هي اصطفاء إلهي واختيار رباني، فلا يعلم النبي أو الرسول - نفسه - قبل أن يتم اصطفاؤه بأنه سيصبح نبياً أو رسولاً ولم يتشوف لذلك، ولم يتقدم بطلب إلى الله تعالى ليتخذه نبياً أو رسولاً قال تعالى ﴿الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس..﴾ (الحج: ٧٥)، وقال ﴿الله يعلم حيث يجعل رسالته..﴾ (الأنعام: ١٢٤). ولذلك فإن من أخطر محاولات التزييف تلك المحاولات التي قام بها البعض واجتال كثير من المسلمين عن دينهم بما ظنه بعضهم جهلاً مدحاً للنبي ﷺ فأقر بالعبقرية لينفي

النبوة والرسالة ولينفي الجانب الغيبي دون أن يتهم بإنكار النبوة والرسالة، فأصبح من الضروري التنبه لمفهوم النبوة والرسالة والوحي والإيمان كما جاءت في كتاب الله لا بالشكل الذي أراده أولئك المحرفون^{١٢}.

إنّ موكب النبوات يمثل في حياة البشرية الظاهرة المقابلة لمواكب إبليس والشياطين فإذا كان الشيطان وحزبه قد جعلوا كل مهمتهم في الحياة إلى يوم الدين دفع البشرية نحو الإنحراف فان مهمة الأنبياء الأولى والثانية والثالثة مساعدة البشرية على الإستقامة، وإذا كان الشيطان وحزبه يواصلون العمل عبر القرون لاجتياح البشر وضمهم إلى مواكب الرافضين للسجود فان مهمة الأنبياء الأولى والأخيرة مساعدة البشرية على السجود، والانضمام إلى مواكب الساجدين. وإذا كان الوحي الإلهي الذي نزل صحائف وكتباً وألواحاً ووصايا قد تم التصديق عليه بالقرآن المجيد فإن القرآن قد صدق واسترجع وهيمن على تجارب النبوات من قبل مع أممهم، وبعد ذلك التصديق والهيمنة، أمر القرآن رسول الله عليه الصلاة والسلام بالاهتداء بتجارب النبيين والمرسلين {.. أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده...} (الأنعام: ٩٠) وأعلن عن وحدة "أمة الأنبياء" في {إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون} (سورة الأنبياء: ٩٢) منذ ذلك الحين والتاريخ البشري يسطر صفحاته في تدافع أولياء الرحمن ضد أولياء الشيطان والأجيال البشرية تتعاقب والحضارات تبنى وتبيد، والأيام تتداول بين الناس، والناس منهم القاسطون، ومنهم دون ذلك.

معنى النبي والرسول:

النبي في اللغة العربية^{١٣}: النبي بغير همز فقد قال النحويون أصله الهمز واستدلوا بقولهم "مسيلمه نبييئ سوء". جاء في لسان العرب: النبي المكان المرتفع، وقيل النبي: ما نبا من الحجارة إذا نجلتها الحوافر، والنبي: العلم من أعلام الأرض التي يهتدى بها، قال بعضهم: ومنه اشتقاق النبي لأنه أرفع خلق الله {ورفعناه مكاناً علياً} (مريم: ٥٧)،

^{١٢} ونستطيع أن نضرب مثلاً بكتاب ميشيل عفلق (ذكرى النبي العربي) الذي أكثر فيه من الثناء على النبي صلى الله عليه وسلم حتى توهم أتباعه أنه قد صار مسلماً مع أن إعجابه برسول الله ﷺ إنما هو إعجاب بزعيم قومي منقذ وباني لأمة فقط.

^{١٣} انظر: ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر/ دار بيروت للطباعة والنشر، ج ٣٠١/١٥ وما بعدها.

٢- الراغب الاصفهاني، المفردات، بيروت، دار صادر، ص ٤٨٢.

٣- السيد محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي، مرجع سابق، ص ٨٤ وما بعدها.

وذلك لانه يهتدى به. والنبي هو الذي أنبأ عن الله وصف من النبأ وهو الخبر المفيد لما له شأن مهم، والنبي بغير همز أبلغ من النبي بالهمز، لأنه ليس كل منبأ رفيع القدر والمحل، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام لمن قال: يا نبي الله فقال: "لست بنبي الله ولكن نبي الله"^{١٤} لما رأى الرجل خاطبه بالهمز بغضاً منه. والنبوة والنباوة: الارتفاع، ومنه قيل نبا فلان مكانه وهي الشرف المرتفع عن الأرض ويصح فيه معنى الفاعل والمفعول لانه منبى عن الله تعالى ومنبأ منه، والنبي بالتشديد أكثر استعمالاً، أبدلت الهمزة ياء، أو هو من النبوة والرفعة والشرف. ويطلق عند أهل الكتاب على الملهم الذي يخبر بشئ من أمور الغيب المستقبلية، وقيل إن معنى أصل مادته في العبرانية القديمة المتكلم بصوت جهوري مطلقاً أو في الأمور التشريعية، وهو عندنا: من أوحى الله إليه وحياً، فإن أمره بتبليغه كان رسولا، فكل رسول نبي، وما كل نبي رسول^{١٥}. ولقد جمع بين اللفظين لبعض الأنبياء كقوله تعالى ﴿فأمنوا بالله ورسوله النبي الذي يؤمن بالله وكلماته، واتبعوه لعلكم تهتدون﴾ (الأعراف: ١٥٧-١٥٨)، وقال تعالى ﴿واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً﴾ (مريم: ٥١)، ﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً﴾ (مريم: ٥٤).

معنى الرسول: أرسل الشئ أي أطلقه وأهمله^{١٦}، قال تعالى ﴿ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا﴾ (مريم: ٨٣)، ومعنى الارسال: التسليط، قال أبو العباس: الفرق بين إرسال الله عز وجل أنبياءه وإرساله الشياطين على اعداءه، أن إرساله الأنبياء إنما هو وحيه إليهم أن أنذروا عبادي، وإرساله الشياطين تخليته وإياهم. وجاء في المفردات^{١٧}: أصل الرسل: الانبعاث على التؤدة، ويقال: ناقة رسالة سهلة السير وإبل مراسيل منبعثة إنبعاثاً سهلاً، ومنه الرسول المنبعث. وتصور منه تارة الرفق فليل: على رسلك إذا أمرته بالرفق، وتارة الانبعاث فاشتق منه الرسول، وتارة لمتحمل القول والرسالة، قال تعالى ﴿وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه، قال: يا بشرى هذا غلام،

^{١٤} الاصفهاني، المرجع السابق، ص ٤٨٢.

^{١٥} أنظر: رشيد رضا، الوحي المحمدي، مرجع سابق، ص ٨٥.

^{١٦} أنظر: لسان العرب، مرجع سابق، ٢٨٣/١١ وما بعدها.

– محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٩٥م، ص ١٠٢، حول معنى النبي: ٢٦٨-٢٦٩.

^{١٧} المفردات، مرجع سابق، ص ١٩٥.

وأسروه بضاعة والله عليهم بما يصنعون { (يوسف: ١٩)، { فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فسنأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إني ربي بكيدهن عليهم { (يوسف: ٥٠).

ورسل الله تارة يراد بهم الملائكة، وتارة يراد بهم الأنبياء، فمن الملائكة^{١٨} قوله تعالى { إنه لقول رسول كريم { (التكوير: ١٩) وقوله { إنا رسل ربك لن يصلوا إليك.. { (هود: ٨١) { قل إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً { (مريم: ١٩)، { قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين، لنرسل عليهم حجارة من طين { (الذاريات: ٣٢-٣٣). ومن الأنبياء: قوله { وما نُحَدِّثُ إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين { (آل عمران: ١٤٤)، وقوله { إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون، إني لكم رسول أمين { (الشعراء: ١٠٧) { وإذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون، إني لكم رسول أمين { (الشعراء: ١٢٥)، { وإذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون، إني لكم رسول أمين { (الشعراء: ١٤٣)، أما قوله تعالى { وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين { فمحمول على رسله من الملائكة والإنس. والإرسال يقال في الإنسان وفي الأشياء المحبوبة والمكروهة، وقد يكون ذلك في التسخير كإرسال المطر والريح^{١٩} { يرسل السماء عليكم مدراراً { (نوح: ١١). { فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون { (فصلت: ١٦)، { لنرسل عليهم حجارة من طين { (الذاريات: ٣٣)، { وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته { (الأعراف: ٥٧).

الأنبياء في القرآن:

لقد جاء القرآن الكريم برسالة كاملة تامة، فحوى الدين -كله- فصدق وهيمن على تراث النبيين كافة ليحفظ تراث تلك النبوا من قبلك إلا رجالات نوحى إليهم فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون، وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام، وما

^{١٨} وقوله { وما جاءت رسلنا لوطاً سيئاً بهم .. { وقال { وما جاءت رسلنا إبراهيم.. { وقال { والمرسلات عرفاً { وقال { بلى ورسلنا لديهم يكتبون {

^{١٩} المفردات، مرجع سابق، ص ١٩٥.

كانوا خالدين} (الأنبياء: ٧-٨)، بل ورسم القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ الخطوط الرئيسية في منهج التعامل مع الأنبياء حيث تمثل قصص الأنبياء القرآنية مؤشرات منهجية في طرحها لمواقف معينة تعكس عمق التصورات العامة كما تستبطن في الوقت ذاته تفصيلات بنائية قادرة على استنباط أسس منهجية تمتد مساحة قابليتها في تكوين تصورات تساعد في تحديد معالم المجتمعات الإنسانية التي تعامل معها الأنبياء في مختلف العصور. ولقد وصف صلى الله عليه وسلم ذلك البناء النبوي في ما روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال قال النبي صلى الله عليه وسلم مثلي ومثل الأنبياء كرجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون لولا موضع اللبنة (البخاري^{٢٠})، وعن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تحزبوا بين الأنبياء^{٢١} (رواه البخاري)، وذلك للاختلاف البين في نوعية المجتمعات، وطبيعة التغيير المطلوب فيها، وقابليات النبي وقدراته البشرية في تنفيذ المهمة. ولذلك فقد أكد القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ على عصمة الأنبياء من ارتكاب الكبائر والذنوب العظيمة التي أتهم بها الأنبياء في بعض كتب أهل الكتاب حتى أنزلوا منزلة تقل بالدونية عن الإنسان العادي. ورسم تلك الصورة للأنبياء كانت لغاية في نفوس الأحرار وأتباعهم كي يرتقوا بأنفسهم إلى منزلة الأنبياء فيحلون ويحرمون ما يشاءون ولذلك جاء القرآن الكريم ليظهرهم مما ابتلوا به، وليثبت مسألة العصمة للأنبياء والرسول فلا يجرؤ أحد على اتهامهم بارتكاب الكبائر والفواحش ويصبح كل من يخالفهم مخالفاً لشرع الله ودينه ومن تلك النماذج:

عيسى وأمه مريم^{٢٢}: قد يكون من أشد الأنبياء تعرضاً للتشويه والتحريف قصة سيدنا عيسى وأمه فقد أورد القرآن الكريم تفاصيل دقيقة عن طبيعة حياتهما بأساليب متعددة منها بالمحاورة مع المعاندين الذين ارتقوا بهما إلى أكثر مما ينبغي فاهوا عيسى أو نادوا به ابناً لله تبارك وتعالى أو مع أولئك الذين لفقوا لهما التهم الهابطة، وكذلك قدم القرآن الكريم حياتهما بشكل سرد قصصي سلس يرصد فيه أهم الأحداث والتغيرات التي وقعت لهما كما جاءت في سورة مريم ١٦-٣٧، وكان مريم كانت محور السورة ومدار مركزيتها، حيث تم التأكيد على براءتها واصطفاءها على

^{٢٠} البخاري، كتاب المناقب رقم الحديث: ٣٢٧٠

^{٢١} البخاري، كتاب الديات، ٦٤٠٥

^{٢٢} أنظر: البقرة: ٨٧، ١٣٦، ٢٥٣، آل عمران: ٤٥-٥٩، ٨٤، النساء: ١٥٧-١٧١٧، المائدة: ٤٦، ٧٨، ١١٠-

١١٦، الأنعام: ٨٥، الأحزاب: ٧، الشورى: ١٣، الزخرف: ٦٣، الحديد: ٢٧، الصف: ٦٤، التحريم: ١٢.

نساء العالمين. كذلك في سورة آل عمران وما جاء به من تفاصيل دقيقة عن بركة أسرتها وحسن نشأتها وتربيتها بالرغم من يتمها وفقدانها لوالديها، ثم كفالة زكريا لها، حيث يقدم القرآن الكريم هنا نماذج لعلاقات مختلفة تحكم فيها القيم والمبادئ العليا التي يستبطنها كل دين سماوي.

سليمان ابن داود: لقد اتهم سليمان بالسرور فبرأه الله في سورة البقرة: "واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنة فلا تكفروا." (البقرة: ١٠٢) كما أظهر القرآن الكريم جوانب مضيئة أخرى من شخصية سليمان عليه السلام في حكمته وحسن تديره للملك الذي وهبه إياه الله سبحانه وتعالى وحسن شكره لله، بل وحسن أسلوبه في الدعوة إلى الله تعالى وهكذا امتدت مساحة التعريف بسليمان في سور وآيات عديدة في النمل والأنبياء، وسبأ، وص وغيرها.

وكذلك فعل القرآن الكريم مع إبراهيم ونوح وموسى وإسماعيل وزكريا ويحيى وغيرهم ليجعل منهم نماذج بشرية يقتدى بها في تثبيت القيم العليا التي تعد أساس العمران الإنساني على وجه الأرض إلى يوم القيامة.

فما هي علاقة النبي محمد ﷺ بمن سبقه من الأنبياء؟

لقد لخص القرآن الكريم هذه العلاقة بمواضع مختلفة كل منها يمثل محوراً من محاور تلك العلاقة التي تتشعب إمتداداتها ما بين العام والخاص، والمجمل والمفصل، حيث يتمثل إطار العلاقة العام في قوله تعالى في سورة الأنبياء حينما طافت آيات السورة على الكثير من الأنبياء والمرسلين ما بين تفصيل وإجمال^{٢٣} ختمت تلك الجولة بقوله تعالى {إنّ هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون} (الأنبياء: ٩٢)؛ فالأنبياء أمة واحدة في طبيعة رسالاتهم ومصدريتها وأسس دعوتها إلى إقامة القيم العليا وتزكية النفس الإنسانية لإقامة أركان العمران في الأرض. ولقد بين القرآن الكريم جوانب الاشتراك والاختلاف كما بين الثوابت والمتغيرات في رسالات الأنبياء والرسل، حيث أكد على أربعة مناطق مهمة العقيدة، والقيم والأخلاق الإنسانية، ثم الشريعة والمعاملات، فتشترك دعوات الأنبياء جميعاً في منطقتي العقيدة والقيم، فجميع الأنبياء يدعون إلى عبادة الله الواحد الأحد وتثبيت القيم العليا وهذا ما أكد القرآن معانيه في مواضع عديدة خاصة في سورة الأنبياء في قوله سبحانه {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} (الأنبياء: ٢٥)، {ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت..} (النحل: ٣٦) فيكون

^{٢٣} اتلوا الآيات من سورة الأنبياء ٤٨-٩٢.

حيز الاشتراك في الأصول والعموميات كما قال تعالى { شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب } (الشورى: ١٣)، أما التفاصيل والتشريعات فتختلف من شريعة إلى أخرى حيث تستبطن معاني المرونة لتترك مجالاً للإجتهد الإنساني في تعامله مع متغيرات الزمان والمكان وبين ذلك قوله تعالى { وأزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون } (المائدة: ٤٨). وهكذا أكد سبحانه في إطار الوحدة النبوية أنه ما كان محمدٌ ﷺ بدعاً من الرسل وإنما هو خاتم الأنبياء، وهنا ليفتح بوابة المحاوراة مع أهل الكتاب من جهة ومع الذين يزعمون أنهم اتباع إبراهيم من جهة أخرى.

ولقد أثار الأصوليون تساؤلاً حول تعبد النبي بشرع من قبله قبل البعثة وبعدها^{٢٤}، وذلك لما ورد في القرآن الكريم من الآيات التي تؤكد وحدة دعوة الأنبياء - كما ذكرنا آنفاً في وحدة الأصول - ولذلك فقد انقسم الأصوليون في هذه القضية الخلافية إلى من نفى تعبه بشئ مما سبق، ومن أثبته. ومنهم من توقف، وظهر الإشكال هنا نظراً لاختلال في فهم السياق القرآني حيث استدلل القائلون بالاثبات بقوله تعالى { إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون } (المائدة: ٤٤)، وقوله تعالى { فبهدهم اقتده } (الأنعام: ٩٠)، { إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده } (النساء: ١٦٣)، { أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً } (النحل: ١٢٣)، { شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً } (الشورى: ١٣) وكما ذكرنا آنفاً وردت هذه الآيات لتؤكد على وحدة الأصول في الإيمان بالله وحده، وإفراده بالعبادة والتزام القيم والأخلاق التي دعى إليها جميع الأنبياء. أما في التشريعات فإن لكل نبي شرعة ومنهاجاً، ويظهر هذا واضحاً عندما جاء عيسى ليعلم لبني إسرائيل عن تخفيف الشريعة التي جاء بها موسى وذلك للتأكيد على ملاحظة أهمية حيز المتغيرات في الحياة الإنسانية، وإبراز دور الإنسان في التعامل معها قال سبحانه { ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله واطيعوا } (آل عمران: ٥٠)، ثم تحتّم الرسالات برسالة الرحمة والتخفيف فيقول تعالى في سورة الأعراف: ١٥٧ قال تعالى { الذين

^{٢٤} فخر الدين الرازي، المحصول في علم الأصول: دراسة وتحقيق د. طه جابر العلواني، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٢،

١٩٩٢م، ج ٣، ٢٦٣-٢٧٥.

يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون. يأبها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا اله إلا هو يحيي ويميت}. ولذلك كانت خطورة تبني فكرة شرع من قبلنا تكمن في ما يترتب عليها من نتائج قد تعيد شريعة الإصر والأغلال التي حررنا الله منها بشريعة الإسلام^{٢٥}.

مهام الأنبياء:

إن للأنبياء والمرسلين مهام حددها الباري جل شأنه بمنتهى الدقة لا يملكون أن يزيدوا فيها أو ينقصوا منها قال تعالى ﴿وما أرسإله واحد فاستقسموا إليه واستغفره وويل للمشركين﴾ (فصلت:٦) وقد يحمل حب أمم الأنبياء لهم وظهور المعجزات على أيديهم بإذن ربهم إلى توهم قدرة النبي على ما لا يدخل تحت قدرته، وهنا قد يفتتن بعض الناس فيخرجون الأنبياء من دائرة البشرية ويقعون في نوع من الشرك الذي جاء الأنبياء والمرسلون للقضاء عليه، فكانت عملية تذكير الناس بمهام الأنبياء وتحديدتها بدقة في الرسالة الخاتمة أمراً في غاية الأهمية، ولذلك وجدنا القرآن الكريم يحدد هذه المهام بوضوح تام ويضرب مثلاً بالأمم التي انحرفت في تصوراتها لأنبيائها ويحذر من الوقوع فيما وقع به أولئك، ويؤكد على بشرية الرسل وعصمتهم مع توضيح شافٍ لمعاني معجزاتهم ومحدودية قدراتهم، ولذلك فإن التأكيد على هذه المهام واستحضارها على الدوام يعد واحداً من أهم المؤشرات المنهجية التي تستدعي في الكشف عن معاني السنة النبوية ومساحتها التشريعية. وهنا يمكن أن نتساءل: هل كان لكل النبيين سنن^{٢٦}؟ وهل هي سيرهم التي أدمجت في

^{٢٥} أنظر مناقشة الآراء في هذه المسألة في المرجع السابق وأمهات الكتب الأصولية الأخرى.

^{٢٦} كانت كتب الأنبياء السابقين عبارة عن وصايا بالأحكام التي كانت تنزل عليهم للوعظ والتعليم لشعوبهم في كيفية القيام بممارسة التعاليم الموحاة وتطبيق ما يمكن تسميته بفقته التدين ولم تكن سنتهم مقصودة لذاتها، بل في حالة موسى وهارون وبقية أنبياء بني إسرائيل تتضح أن هؤلاء الأنبياء كانوا يبلغون الشعب على حد تعبير التوراة ما يوحي إليهم ويحثونهم على تنفيذه ويعظونهم ويحذرونهم من نخالفته، وكثير من نصوص التوراة تشير إلى أن الوحي كان ينزل على موسى عليه الصلاة والسلام والشعب يسمع أو يشاهد، كما يلاحظ أن علاقة الشعب الإسرائيلي مع الله تعالى إنما هي علاقة حاكمية إلهية مباشرة قائمة على الخوارق يقوم الرسل فيها بدور الوزراء الذين يبلغون الشعب ما يأمر الله تعالى ويرفعون طلباتهم إليه، بل أحياناً لا يبرز دور الرسول إلا بمثابة مكبر صوت أو موصل ما بين الله والشعب، فلم يكن هناك في عقول الإسرائيليين مجال للنظر بأن هناك مصدراً نبوياً إلى جانب المصدر الإلهي يكمل المصدر

النص؟ هل هي سنن متصلة بكتبهم المنزلة أو منفصلة؟ فإن كانت متصلة هل يمكن فصلها عن أصل الكتب السماوية وتمييز النصوص الإلهية عن البشرية؟ وإن كانت منفصلة فأين نجدها؟ ومن الذي دون هذه السنن والسير، ومتى دونت؟ وهل حصل فيها خلاف أو طراً عليها تحريف؟ وما علاقة سنة النبي ﷺ بسنن السابقين من الأنبياء؟ وما أهمية معرفة مهام الأنبياء على تحديد مفهوم السنة؟ وأخيراً ما هي أهم مهام خاتم الأنبياء محمد ﷺ؟ وما دورها في تحديد معاني السنة؟

مهام خاتم الأنبياء:

المهمة الأولى: التلاوة: أن الله -تعالى- قد أمر نبيه الكريم بتلاوة القرآن كما أنزل إليه على الناس {قل إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة التي حرّمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين، وأن اتلو القرآن فمن أهدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين} (النمل: ٩١-٩٢)، {كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو

الإلهي ما يحتاج إلى إكمال، بل يأخذ الرسول شكل المسؤول الأول عن التطبيق والشرح لما يأتي في النص الإلهي، ولذلك لم يشعر بنو إسرائيل حين بدءوا تدوين التوراة وتراث أنبياءهم بعد وفاة موسى بحوالي خمسين وثلاثمائة سنة إلى أن يفصلوا بين المصدرين فيقولون مثلاً هذه كلمات الله وهذه سنن موسى وهارون وداود وسليمان فضموها جميعاً في أسفار موحدة وخطوا بينها خلطاً كاملاً وامترجت حتى صار التمييز بينها مستحيلاً وحين نقرأ تاريخ التوراة وتدوينها والتطورات التي مرت بها نستطيع أن نرصد مراحل عدة: ففي المرحلة الأولى التي قادها الأنبياء بشكل مباشر كانت الألواح والوصايا والتوراة المنزلة يعلمها الأنبياء للشعب ويجري تناقلها بين العامة بشكل شفاه. وبعد أن مر الشعب الإسرائيلي بما مر به وتوقفت النبوات وحدث السبي البابلي ففقدوا كل أثر مدون واضطر أحبارهم ورهبانهم إلى أن يعيدوا من الذاكرة كتابة ما بقي في الأذهان مختلفاً بما تعلموه في بابل، سواء ملحمة كودامش أو الأدب البابلي العام أو القوانين السائدة أو السحر والخرافة وقالوا لشعبهم هذا تراثكم وهذه توراتكم، وأعطوها أسماء ومستويات لاتباع الشعب الإسرائيلي بصدقهم فيما ذهبوا إليه، ولما عادوا من السبي البابلي شرع بعضهم في إعادة ما نقلوه، فكان يهود الجزيرة العربية يعتمدون على ثقافتهم الشفوية في تداول الأمور الدينية في حين يحتفظ كبار أحبارهم ببعض النصوص التي كتبت في مرحلة السبي البابلي، ولكنها في كل الأحوال عبارة عن تجميع للتراث اليهودي بمعناه العام الشامل لقصاص أنبياءهم ومواعظ حكماءهم وأحبارهم والمزامير الموروثة بكل ما أضيف إليه أو حذف منها وبالتالي فإنه مما يمكن أن يعد سنناً لأولئك الأنبياء فقد مزج في ذلك التراث مزجاً يجعل عملية فرزهِ وفصلهِ أقرب إلى المحال. (أنظر الموسوعة اليهودية، الدكتور عبد الوهاب المسيري،...)

عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون { (البقرة: ١٥١)، {لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة { (آل عمران: ١٦٤) {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم { (الجمعة: ٢-٤) {رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً { (الطلاق: ١١). لقد بينت الآيات وغيرها من الآيات التي وردت في الإطار ذاته أن مهمة تلاوة القرآن الكريم من أولى مهام النبي ﷺ وذلك ليمنح الإنسان في كل زمان ومكان القدرة على تدبره واستخراج الحكمة والموعظة الحسنة بحيث يستمر القرآن بالعطاء للبشرية طالما أن الإنسان يتلو هذا الكتاب ويتدبر معانيه لتنتج أمامه آفاق النظر والفكر لقراءة الكون ودراسة الواقع ومنهجه وحركته.

المهمة الثانية:

التبليغ: أما التبليغ في اللغة: فهو من بلغ: والبلوغ والبلاغ في اللغة بمعنى الانتهاء الى أقصى المقصد والمنتهى مكاناً كان أو زماناً أو أمراً من الأمور المقدره، قال تعالى {قل اطيعوا الله وأطيعوا الرسول، فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم، وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين { (النور: ٥٤)، {يا أيها النبي بلغ ما أنزل إليك من ربك، فإن لم تفعل فما بلغت رسالته... { المائدة: ٦٧ {فان توليتم فاعلموا إنما على رسولنا البلاغ المبين { المائدة: ٩٢. ومن المهم استيعاب أن القرآن الكريم حين يستعمل الكلمة العربية، فإنه يخرجها من موقع الكلمة البسيطة إلى موقع المفهوم الغني بدلالاته وآفاقه بحيث يفتح على جملة من المعاني ما كانت ترد على الذهن قبل استعمال القرآن الكريم لها، ووضعها في نظمه وسياقه. ومادة "بلغ" في الاستعمال القرآني لم تعد مجرد إيصال نبأ أو قول ونقله من شخص لآخر، بل يوضح القرآن الكريم معاني مهمة (البلاغ) بإنها تبليغ الأنبياء أقوامهم في شكل من أشكال البلاغ وأحياناً -بتطبيقاتهم العملية- لأحكام الله تعالى وفي الآيات التالية نموذج ومثال لتبليغ قضية حساسة للغاية بالنسبة لرسول الله ﷺ في إنزال وتبليغ حكم التبي قال تعالى: {وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه، (الأحزاب: ٣٧-٤٨).

فهذه الآيات تؤكد أن التبليغ مهمة وتكليف للرسول يتجاوز التطوع، بل وقد يكون أحياناً فيما لا يرغب الرسول اطلاع الآخرين عليه، لكنه أمر الله الذي لا يسعه التردد في تنفيذه حتى لو لم يصادف رغبته أو رضى في نفسه. وفي هذه الآيات لم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام مجرد مبلغ لرسالة توسط بين مرسلها والمرسل إليه، بل كان مبيناً بالقول والفعل والعمل في كيفية تطبيق ما ورد في هذه الرسالة وقطع دابر أي تساؤل حول عدم التطبيق وضرورته وحتميته وتوضيح لموقعه عليه الصلاة والسلام من أمته ومبيناً لرحمة الله تعالى بالناس لينزيل من الأذهان أي تصور يجعل التكليف حرجاً ومشقة، فالتكليف كله في هذه الشريعة رحمة وإخراج من الظلمات إلى النور وبشائر للمؤمنين وتنقية وتزكية لهم، والرسول عليه الصلاة والسلام هو الشاهد والمبشر والناذير والداعي إلى الله تعالى بإذنه وهو السراج المنير الذي في ضوء هديه وسننه يتمكن المؤمنون من تحقيق مقتضيات هذه الرسالة في الواقع المعيش.

وأما المهمة الثالثة:

البيان: نعني بيان القرآن للناس بحيث تزول الاختلافات بينهم في فهمه، أو تنخفض نسبتها بشكل كبير على الأقل ويصبحون على بينة منه وقادرين على تطبيقه: قال تعالى {وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فاستلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر، وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون} (النحل: ٤٤)، وهذا البيان اليهم يكون بالفعل والقول -والتقرير منه- {تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم، وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون} (النحل: ٦٤). {يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نورٌ وكتاب مبين} (المائدة: ١٥)، {يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءكم بشير ونذير، والله على كل شئ قدير} (المائدة: ١٩).

وللبیان^{٢٧} معنيان: بيان بالمعنى العام: وهو يشمل بيان ما يتعلق بالقضايا الأساسية التي اختلفت واضطربت حولها الأمم مثل (معاني الربوبية والإلهوية والصفات) وغيرها من المفاهيم التي حصل الإنحراف فيها نتيجة الإنحراف عن رسالات المرسلين وسير الأنبياء.

^{٢٧} أنظر: الإمام الشافعي، الرسالة، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٣٢١هـ.

- إمام الحرمين الشافعي (ت ٤٧٨هـ)، البرهان، تحقيق: عبد العظيم الديب، قطر.

وبيان خاص يتناول ما يلي:-

١- بيان العقيدة والشريعة الكاملتين العالميتين الصالحتين لكل زمان ومكان وإنسان لانطلاقهما من منطلقات العموم والشمول، والتخفيف والرحمة، وحل الطيبات، وتحريم الخبائث، ووضع الإصر والأغلال ووضع الحرج والإعتماد على حاكمية الكتاب وختم النبوة والجمع بين القراءتين بقراءة إنسانية واعية على دور المقروء والقارئ.

٢- بيان العبادات وهو بيان تحتاجه البشرية من عهد الرسالة إلى يوم القيامة، إذ لا يجوز أن نعبد الله تعالى كما نرغب ونهوى فنخترع العبادات التي نريد، بل يجب أن نعبد كما يأمر ويريد فتلك هي العبادة الحققة المقبولة.

إن من معاني البيان تبليغ وتبيين معنى الهيمنة بالقرآن المجيد على تراث النبوات - كلها- والتصديق عليه، ذلك التراث الذي تعرض للتحريف والتلاعب حين خان الأحرار والربانيون الذين استحفظوا ذلك التراث أمانتهم فحرفوا ما ائتمنوا عليه ونسوا حظاً مما ذكروا به، فكانت مهمة خاتم النبيين مهمة مزدوجة تشتمل على اخراج الأميين من الأمية ليصبحوا أهل كتاب وهو القرآن الكريم، وتبليغ أهل الكتاب كيفية هيمنة القرآن الكريم وتصديقه على الكتاب كله في إعادة قراءة تراث الأنبياء والمرسلين بقراءة قرآنية تنقل حقائق تلك النبوات وما جاء به أصحابها إلى البشرية كافة، فكان رسول الله - ﷺ - بسيرته الكريمة خير نموذج بياني في حفظ ذلك التراث عملياً في تنزيل آيات القرآن الكريم في - مجال رسالات وسير الأنبياء- على الواقع الإنساني حيث قال تعالى: {وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم. إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً سأتيكم منها بخبر أو أتاكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون} (النمل: ٦-٧)، وقال سبحانه {إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين، شاكراً لانعمه اجتنابه وهداه الى صراط مستقيم، واتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين، ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين} (النحل: ١٢٠-١٢٣). ولذلك لم يكل الله - تعالى- حفظ كتابه الأخير إلا لذاته العلية: {إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرآناه فاتبع قرآنه، ثم إن علينا بيانه} (القيامة: ١٧-١٩) {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} (الحجر: ٩)، فكما لم يشرك الله تعالى أحداً في إنزاله، لم يشرك أحداً في حفظه، وتلاوته على نبيه الخاتم، وبيان محكم آياته للناس.

وبذلك توحدت "المرجعية البشرية" في هذا القرآن فهو الكتاب الخاتم الذي نزل على خاتم النبيين في البلد الحرام. وهيمنة القرآن الكريم وتصديقه مطلقان، فهو مهيمن على تراث النبيين كافة وعلى السنة المحمدية ومصدق عليه وعليها، وهيمنة على تراث النبوات تعني الحاكمية عليه، والتصديق عليه: يعني إزالة كل ما تعرض أو يتعرض له

تراث الأنبياء من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويلات الجاهلين والمغترين، وإعادة تقديمه صادقاً منقى من ذلك كله.

المهمة الرابعة:

التزكية: تزكية الناس بهذا القرآن: - تزكية نفوسهم وقلوبهم وعقولهم وحياتهم كلها نظاماً وتشريعات وعلاقات ومعاملات. وبذلك تتحقق المهام النبوية كلها: {ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، إنك أنت العزيز الحكيم} (البقرة: ١٢٩). {هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين} (الجمعة: ٢)، {لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة} (آل عمران: ١٦٤). لذلك فإنه ما من علم من علوم المسلمين أو نوع من أنواع معارفهم، التي تكونت حول النص القرآنيّ إلا وكان له نوع من التعامل مع السنة النبوية المشرفة كلاً أو جزءاً، وقد أعطى أهل كل علم أو فن أو معرفة للسنة معنى يتفق واصطلاحاتهم، وسواء أعبّر ذلك عن حقيقة السنة، أو عبر عن جانب من جوانبها، أو لازم من لوازمها أو لم يعبر إلا عن اصطلاحهم الخاص (فلا مشاحة في الاصطلاح)، ولكن ذلك قد ساعد ولو بدون قصد على إلحاق ذلك الغبش بمعنى السنة وحقيقتها، والمراد بها عند الاطلاق، فللأصوليين اصطلاحهم، وللفقهاء مثله، وللمحدثين مصطلح ثالث، وللكلاميين معنى رابع وهكذا..، لذلك أصبح بيان المعنى المراد عند الاطلاق ضرورة، ولذلك فاننا سنكرس - بإذن الله - هذا البحث لتوضيح بعض المفاهيم الأساسية الكاشفة عن معاني السنة النبوية ومنها:

القرآن ومعجزات الأنبياء

لقد اقتضت الحكمة الإلهية اصطفاء الأنبياء ليكونوا وسيطاً يحملون إلى البشر وسائل الهداية والنور قال تعالى {ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية، ما كان لرسول أن يأتي بآية إلا باذن الله، لكل أجل كتاب} (الرعد: ٣٨)، فالأنبياء والمرسلون من البشر في خلقتهم، ولكنهم مثل الملائكة في طاعتهم لله تعالى، فهم عليهم السلام وإن كانوا من حيث الأبدان بشراً فهم من حيث الأرواح جزء من عالم الأمر الإلهي مهيوّ لاستقبال

الوحي بتأييد إلهي، إذ قد أيدوا بقوة روحانية وخصوصاً بما قال تعالى في عيسى {وأيدناه بروح القدس} (البقرة: ٢٣٥)، وفي مُحَمَّد ﷺ {نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين} (الشعراء: ١٩٣)، وقد خصهم بهذا الروح ليتمكنهم من تلقي الوحي والروح من أمره بوساطة الملائكة لما بينهم من الوساطة الروحانية {ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم} (الشورى: ٥١).

فالأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام يلغون الناس ما نزل إليهم، لما بينهم وبين الناس من المناسبة البشرية، قال تعالى {ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون} (الأنعام: ٩) تنبيهاً على أنه ليس في قوة عامة البشر الذين لم يخصوا بتلك الروح أن يستقبلوا رسالات الله إلا من طريق البشر. وينقل القرآن الكريم أن الناس في كل زمان كانوا يطلبون من الأنبياء "آية" وكان الأنبياء يجيبون على هذا الطلب المعقول المنطقي بصورة إيجابية، عندما يكون الطلب مقدماً من أناس يبحثون عن الحقيقة، أما إذا كان الطلب مقدماً لأسباب أخرى مقابل قبول الدعوة وإتباع النبي، فإن الأنبياء يترفعون عن قبول مثل هذه المساومة. فالمعجزة أو الآية تنزل منزلة قول الله تعالى "صدق عبدي في ما يبلغ عني" لأن الآية أو المعجزة أمر لا يمكن لأي إنسان أو شيطان أو جنّي أو ملك أن يأتي بها إلا بإذن الله ليؤدي هذا الدور. فهل تخرج المعجزة النبي من بشريته؟ وهل تلغي المعجزة دور السنن. وهل تستهدف شل العقل الإنساني عن الحركة أو الاستسلام التام؟

إن القرآن الكريم يسمي الآثار الخارقة التي يبيدها الأنبياء بإذن الله للدلالة على صدق أقوالهم "آية"؛ ولكن الاستعمال المتداول لهذا المفهوم بين جميع كوادرات الأمة الفكرية والشعبية هو "معجزة"^{٢٨}. لأن هذه العلامات تظهر عجز سائر الأفراد وضعفهم، ولقد أصبح من المتداول بين الناس استخدام مصطلح (معجزات الأنبياء) بدلاً من استخدام المفهوم القرآني (آيات الأنبياء)، فماذا ترتب على هذا الخلط بينهما فكرياً من سلب أو إيجاب؟ يمكن القول أن هذا الخلط بين مفهومي الآية والمعجزة كرس صفة التحدي والقهر في العقل الإنساني في حين أن الأصل فيها أنها شاهد ودليل على صدق من أظهر الله على يديه الآيات، والفرق بين التصورين كبير. إن مادة "العجز" تستثير في الإنسان طاقات المقاومة والرفض، في حين إن معنى الآية لا يسقط معنى الإعجاز ولا يتجاوزه ولكنه يستبطنه في إطار الدليل، قال الأصفهاني رحمه الله تعالى في معنى الآية: هي العلامة الظاهرة وحقيقته لكل شئ ظاهر هو ملازم لشيئ لا يظهر ظهوره، فمتى أدرك مدرك الظاهر منهما علم أنه أدرك الآخر الذي لم يدركه بذاته إذ كان

^{٢٨} مرتضى مطهري، الوحي والنبوة، لإيران، وزارة الإرشاد الإسلامي، ص ٩.

حكهما سواءً، وذلك ظاهر في المحسوسات والمعقولات فمن عِلِمَ ملازمة العِلْمَ للطريق المنهج ثم وجد العِلْمَ عِلِمَ أنه وُجد الطريق المنهج وكذا إذا عِلِمَ شيئاً مصنوعاً عِلِمَ أنه لا بد له من صانع، ولذلك فهممة الآية أن تهيب الإنسان لحسن الإستماع والإستقبال وبالتالي قبول الرسالة والتصديق بالمرسل. ولذلك لم يستخدم القرآن الكريم لفظة معجزة، وكان الكلاميون أول من اصطلح على لفظة معجزة لاختلاف آراءهم حول حقيقتها وشروطها وقد تعرض القاضي الباقلاني^{٢٩} لذلك وهو شيخ متكلمي الأشاعرة، لأن استخدام مصطلح (المعجزة) بديلاً أو مرادفاً لمفهوم (آية) قد حوّل منحى المنهج الفكري الإنساني في التعامل مع القضية الكلية إلى مستوى آخر، مما استدعى في أذهان العامة نوعاً من الترابط بين المعجزات والمحاولات البشرية لمجاراتها بدلاً من ربط آيات الأنبياء بآيات الكون وآيات القرآن الكريم، مما أدى إلى هبوط المستوى الإنساني لا ارتقائه.

ويعد الخلط بين آية النبي ﷺ وهي القرآن الكريم، ومعجزات موسى وعيسى وغيرهما من النبيين من المؤشرات الفكرية الخطيرة في معاني المعجزة، فمعجزات السابقين خاصة سيدنا موسى وعيسى معجزات حسية دلت على توقيت الرسالة، وقد أخضع الله سبحانه وتعالى هذه المعجزات لنوع من الارتباط بين التكذيب بها بعد أن يطلبها القوم ويسعون إليها وبين هلاك تلك الأمم وهي بجد ذاتها تخويف قال تعالى (وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً)، في حين إن القرآن الكريم كان بشيراً ونذيراً وليس مخوفاً بحيث يشل الطاقات العقلية البشرية. كما أن نزول المعجزات والآيات التسع على موسى وآيات عيسى ارتبطت معانيها بتشديد الشريعة على الناس وهذا بخلاف الشريعة الخاتمة شريعة التخفيف والرحمة، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى نص على منع الآيات الحسية عن هذه الأمة فقال تبارك وتعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً) (الإسراء: ٥٩-٦٠)، وتحداهم بالقرآن (لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، ولقد صرفنا في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً) (الإسراء: ٨٨، ٨٩). ولكن ظهرت آثار هذا الخلط في إطار التأكيد على ظهور معجزات حسية نسبت للنبي ﷺ عليه الصلاة والسلام، وتم التأكيد عليها وشغل الناس بها عن القرآن الكريم، لتهدم برسالة القرآن البرهانية والعقلية المخاطبة

^{٢٩} الباقلاني، البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة، نشر: الأب ريتشارد يوسف اليسوعي في سلسلة علم الكلام، منشورات الحكمة في بغداد، توزيع المكتبة الشرقية ساحة النجمة بيروت، ١٩٥٨م، ص ٢٣.

لل بشرية كلها في طورها العقلي المرتقى وفي سائر أطوارها العلمية المتقدمة بحيث يجعلها مساوية لرسالات خاصة بأقوام أو شعوب معينين، فامتلاءً العقل المسلم بتلك الروايات وحاول التوفيق بينها وبين هذه الآيات الصريحة القاطعة التي لا تحمل تأويلاً بأن آية هذه الرسالة إنما هي القرآن، والقرآن وحده وكل ما روى أو نسب إلى الرسول ﷺ لا بد أن يخضع للقرآن ويهيمن القرآن الكريم عليه، وإذا أكرم الله - عز وجل - رسوله - ﷺ - لشيء فإنه على سبيل التحدي - مثل إنزال الملائكة في بدر، فهذا من قبيل تدخل عالم الأمر في عالم التشيُّؤ، وهو أمر إلهي لا يتحدى البشر بمثله. ومن هنا كان موقف القرآن صارماً ولذلك لا بد أن يكون موقف علماء الأمة في هذه القضية في صف القرآن المجيد اقتداءً بالنبى محمد ﷺ.

إن التأمل في استخدامات القرآن الكريم لمفهوم آية بمعانٍ متنوعة تشمل آيات القرآن، وآيات الكون وسننه المستمرة الكونية منها والاجتماعية^{٣٠} ليؤكد على أهمية استحضار مفردات الجمع بين القراءتين (قراءة الوحي والكون) في آيات عديدة توجه نظر وفكر الانسان في منظومة الرسالة الخاتمة التي جعلت من تلاوة الكتاب الخاتم مع قراءة الكون وسننه الثابتة (من خلق الليل والنهار، والحياة والموت، وغيرها...) أدوات ناظمة لفكر الإنسان المستخلف في مراحل سموه لخالفه في تحقيق مقاصد الخلافة والإستئمان وحفظ العهد. فالآية في الرسالة الخاتمة تأخذ من ثبات السنن الإلهية واستقرارها أدلة قاطعة على الخلق في التدبير والعناية لا خرق السنن، و لا يُقصد تحدي للعقل الإنساني بمواجهة الآيات المبهرات التي تشل طاقته ويستسلم مقهوراً، بل المراد تفجير طاقاته وبعثها وأحيائها ليكون قادراً على التعقل والتدبر والنظر والتفكير والفهم والتفسير والتأويل والإجتهد والإبداع فهذه الوظائف كلها تحتاج إلى عقل صحيح سليم حرٍّ غير عاجز. وفي الوقت نفسه نجد الآيات القرآنية توجه إلى فهم الغيب لا لشل العقل، بل لتحريكه وتشغيله ومعرفة خضوع هذا الغيب كله لذات الخالق العظيم الذي يخضع هو له وأن العلاقة بينهما منظمة بدقة ومهيمن عليها، فلا ينبغي له أن يخشى الطبيعة ويهرب من المجهول أو يعبده، بل المطلوب أن يعمل على فهمه

^{٣٠} قال تعالى ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يَخْلُقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ. وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يَخْلُقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَيَجْعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِزَاءَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ يَخْلُقَ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ذَكِيمٌ﴾ (الروم: ١٩-٢٤)

والكشف عنه آيات الكتاب، أما الكون فهو ليس مصدرًا لانبهاره وإخضاعه بل هو ميدان لفعل العمران الذي هو جوهر عملية الإستخلاف.

مفهوم الوحي:

إن تحديد مفهوم الوحي له أهمية كبرى في تحديد مفهوم السنة، ولذلك لا بد من تحري الدقة في تعريفه لتجاوز ذلك التساهل الذي سمح أن يدرج تحت مفهوم الوحي كل ما صدر عن النبي ﷺ من قرآن أو ما أطلق عليه من سنة فيما بعد بقطع النظر عن تحديد الاختلافات بين القرآن الذي لم يكن للنبي ﷺ فيه إلا اتباع قرآنه ووحيه وقراءته وتلاوته على الناس كما أنزل عليهم فهو كلام الله المتعبد بتلاوته المتحدى بأقصر سورة منه المعجز للبشرية كلها، في حين أن بقية ما صدر عن رسول الله من أقوال وأفعال وتقريرات يتفق الجميع بأنها صدرت عن اعتبارات مختلفة ففي افعاله ما هو جبلي طبيعي وما هو تطبيق للقرآن الكريم وتوجيهاته وما هو صادر وفقاً للوظائف التي كان يؤديها ﷺ من إمامة وقضاء وإفتاء وتعليم وتوجيه وتشريع ولا شك ان بعض ذلك يعد من قبيل النسبي المرتبط ببيئته عليه الصلاة والسلام وبعضه يعد في دائرة الخصوصيات له ولبعض الأصحاب وبعضه تشريع، إذ ما لم يجر هذا التمييز والفرز ويتخلص من الخلط يبقى الجدل دائراً وموضع النزاع غير محرر ولا مفهوم، وبعد أن ننتهي من تحديد الوحي في القرآن وفي السنة وفي علم التوحيد فإننا سنكون قد أوضحنا جانباً أساسياً من جوانب هذه الإشكالية التي ينبغي أن تصحح المفاهيم الأخرى وفقاً لذلك المفهوم كما في مفهوم السنة وفي نفس المستوى نجد كثيراً من التعاريف اللغوية والاصطلاحية، ومن خلال تلك التعاريف وتحليلها علينا أن نحاول بيان حقيقته باعتباره مفهوماً له حقيقته الغيبية التي استطاع الإسلام أن يعطيها من الوضوح والجلال ما لم يعطها إياه أي تصور آخر، ومن ذلك يمكن تحديد موقع السنة من الوحي مع طرح الإشكاليات المتعلقة بهذه والتي نشأت نتيجة تراكمات تاريخية أدت إلى غيش الرؤية في موقع السنة من الوحي. ولذلك فلا بد من تحرير تعاريف الوحي لغوياً وقرانياً وفي السنة وعند أهل الكلام ليتمكن الباحث بعد ذلك من الغرلة والتمحيص في تلك القضايا بإذن الله.

تعاريف الوحي لغوياً وقرانياً: قال الراغب الأصفهاني^{٣١}: أصل الوحي الإشارة السريعة ولتضمن مفهومه السرعة قيل "أمر وحي" وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب،

^{٣١} المفردات، مرجع سابق، ص ٥١٥.

وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة، وقد حمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا ﴿فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا﴾ (مريم: ١١)، فقد قيل: رمز، وقيل: فعل شيئاً عدّ وأعتبر وحياً. وأما قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾ (الأنعام: ١١٢) وقوله تعالى ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم...﴾ (الأنعام: ١٢١)، فذلك مفسر بالوسواس المشار إليه بقوله تعالى ﴿من شر الوسواس الخناس﴾ (الناس: ٤). قال تعالى ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء، إنه عليّ حكيم، وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ (الشورى: ٥١، ٥٢). ويقال للكلمة التي تلقى إلى أنبياء الله ورسله (وحي)، وذلك يحدث على ضرب حسب ما دلت عليه الآيات الآتية^{٣٢}:

١- وذلك إما برسول مشاهد تُرى ذاته ويُسمع كلامه كتبليغ جبريل -عليه السلام- للنبي في صورة معينة (عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي فقال رسول الله ﷺ أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً^{٣٣}) رواه البخاري.

^{٣٢} إن محاولة الراغب الأصفهاني الفذة في أهم كتبه القليلة (مفردات غريب القرآن) لبيان مفهوم "الوحي" قرآنيًا^{٣٢} تعد مفتاحاً معرفياً هاماً في عملية دراسة المفاهيم القرآنية، وذلك أن ما أتبعه الراغب الأصفهاني في دقة تتبع المفهوم ووضوحه، وذلك في بناء لبنات المفاهيم القرآنية ابتداءً من تتبع المعنى اللغوي، الذي هو الأساس والمنطلق باتجاه بناء المفاهيم والمصطلحات بناءً سليماً، ولقد حاول الراغب إقامة المفهوم، ثم تتبع استعمالات القرآن الكريم الذي لا يضل من اتبعه، وهذا الذي توصل الراغب إليه من أفضل وأهم ما ذكر في مفهوم "الوحي" وفي معانيه المتعددة التي اشتمل عليها بالنسبة للمؤمنين به، إذ هو ظاهرة غيبية. فالوحي الإلهي أمر غيبي، والله -تعالى- يصطفي من يشاء لتلقي وحيه من عباده، ويصطفي ملكاً يتلقى وحيه عنه وينزل به إلى رسله وأنبيائه ليبلغوه بدورهم إلى أممهم، وهذا الملك قد يأتي الرسول بميئته الملائكية وقد يأتيه بميئة أخرى. والمؤمنون يؤمنون بأن الملك يأتي الرسول والنبي واقعاً حقيقة لا تخيلاً، وبقظة لا مناماً.

^{٣٣} صحيح البخاري، باب بدء الوحي، حديث رقم ٢.

٢- وإما بسماع كلام من غير معاينة كسماع موسى كلام الله تعالى {وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى} (طه: ١٣).

٣- وإما بتسخير نحو قوله تعالى {وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون. ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون} (النحل: ٦٨-٦٩) ويتضمن وحي مختص بالملائكة: كما جاء في قوله تعالى {إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا..} {الأنفال: ١٢}، فذلك وحي لهم بواسطة اللوح والقلم فيما قيل، وقوله تعالى {واوحى في كل سماء أمرها..} {فإن كان الوحي إلى أهل السماء فقط فالموحي اليهم محذوف ذكره، كأنه قال أوحى إلى الملائكة لان أهل السماء هم الملائكة، ويكون كقوله {إذ يوحى ربك إلى الملائكة...} {وإن كان الموحي اليه هي السموات فذلك تسخير عند من يجعل السماء غير حي، ونطق عند من جعله حياً، وقوله {بأن ربك أوحى لها} فقريب من الأول وقوله تعالى {ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى اليك وحيه} فحث على التثبت في الاستماع وعلى ترك الإستعجال في تلقيه وتلقنه

٤- أو بمنام كما قال عليه الصلاة والسلام عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: " رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة"^{٣٤} رواه البخاري.

٥- وإما بإلهام نحو {وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه..} {القصص: ٧}، {إذ أوحينا الى أمك ما يوحى، أن اذنيه في التابوت، فاخذيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له، وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني} (طه: ٣٨-٣٩).

الإلهام: في اللغة: اللهم من الابتلاع، ولهم الشئ لهماً والتهمه: أي ابتلعه بمره. واللهم: العظيم، ورجل لهم كثير العطاء. وألهمه اله خيراً أي لقنه إياه. والإلهام: ما يلقي في الروح^{٣٥}. بطريق الفيض ويختص بما من جهة جهة الله والملا الأعلى، ويقال: إيقاع شئ في القلب يطمئن له الصدر يخص الله به بعض اصفياته، واستلهمه إياه سأله أن

^{٣٤} صحيح البخاري، باب التعبير، حديث: ٦٤٧٢.

^{٣٥} ابن منظور، لسان العرب، ١٢/٥٥٤ وما بعدها.

٢- الفيروزبادي، القاموس المحيط، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١٩٩٥م، ٤/١٥١ وما بعدها.

٣- محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس، بيروت، دار مكتبة الحياة، ٩/٦٨ وما بعدها.

٤- المفردات، مرجع سابق، ص ٤٥٥.

يلهمه قال تعالى { فألهمها فجورها وتقواها } (الشمس: ٨) وكقوله ﷺ: "إنّ روح القدس نفث في روعي ..^{٣٦} . وعرفه ابن سينا: بأنه ما يلقيه العقل الفعال في نفس الإنسان المؤيدة بشدة الصفاء، وشدة الاتصال بالمبادئ العقلية^{٣٧} . وعرف صاحب جمع الجوامع الإلهام بأنه: إيقاع شئ في القلب يثلج له الصدر يخص به الله تعالى بعض أصفائه، وهو ليس بحجة لعدم ثقة من ليس معصوماً بخواطره، خلافاً لبعض الصوفية في قوله: أنه حجة في حقه، أما المعصوم كالنبي ﷺ فهو حجة في حقه وحق غيره إذا تعلق بهم كالوحي^{٣٨} . أما عند الصوفية: فالإلهام هو: النفث في الروح، والإيقاع في القلب من العلم غير القائم على الاستدلال والنظر^{٣٩} .

إن النبوة أمر غيبي، وجزء من أمر ربي، فإذا أريد تقريب صورة ادراكها إلى الأذهان على المستوى التعليمي فلا ينبغي أن تزال عنها صفة الغيب، بل لا بد من الإيمان بها بصفاتها الحقيقية الغيبية التي يكرسها التحدي والإعجاز والعصمة. ويقول الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد عن معنى الوحي: "وقد عرفوه شرعاً أنه إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه، أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله تعالى بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت. ويفرق بينه وبين الإلهام، بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق الى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور" . وقد بين ابن تيمية شروط الإلهام كمنهج للمعرفة بقوله: "إن الذين أنكروا كون الإلهام طريقاً للمعرفة على الاطلاق أخطأوا، كما أخطأ من جعله طريقاً شرعياً على الاطلاق، وإنما يكون فيما إذا اجتهد السالك في الأدلة الشرعية الظاهرة فلم ير فيها ترجيحاً وألهم حينئذ رجحان أحد الفعلين، مع حسن قصده، وعمارته بالتقوى، فإلهامه دليل في حقه^{٤٠}؛ أي لا يفرض على غيره إلا بدليل عقلي يعضده وبذلك يكون الإلهام مما يستأنس

^{٣٦} المرجع السابق، ص ٤٥٥ .

الزبيدي، مرجع سابق، ٦٨/٩ .

^{٣٧} جميل صليبا، المعجم الفلسفي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٨م، ١/١٣١ .

^{٣٨} جمع الجوامع، ج ٢، ص ٣٩٨ .

^{٣٩} عبد المنعم الخنفي، معجم مصطلحات الصوفية، بيروت، دار السيرة، ط ١، ١٤٠٠هـ، ص ٢٣ .

^{٤٠} ابن تيمية، الفتاوى، مرجع سابق، ٤٧٣/١٠ .

به طالما كان في دائرة ما أحله الله في شرعه ورسوله، أما إن كان لا أصل له في الشريعة أو مما حرمه الله فهو مردود مطلقاً.

يقول مُجدد رشيد رضا^{٤١} عن الفرق بين الإلهام والوحي الإلهي: إن ما يسميه بعضهم بالوحي النفسي وهو الذي فسره الفلاسفة (الإلهام الفاضل من استعداد النفس العالية)، فصار الخلاف بيننا وبين هؤلاء في كون الوحي الشرعي من خارج نفس النبي نازلاً عليها من السماء كما نعتقد، لا من داخلها فائضاً منها كما يظنون، وفي وجود ملك روحاني نزل من عند الله على النبي ﷺ كما قال تعالى ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين، نزله الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين﴾ (الشعراء: ١٩٢-١٩٥). وأما قوله تعالى ﴿ومن أظلم ممن أفترى على الله كذباً أو قال أوحى إلي ولم يوح إليه شيئاً ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ..﴾ (الأنعام: ٩٣)، فذلك من يدعي شيئاً من أنواع ما ذكرناه من الوحي أي نوع ادعاه من غير أن يكون قد حصل له.

مداخل الوحي العام في رسالات الأنبياء:

- **معرفة وحدانية الله تعالى:** قال تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ (الأنبياء: ٢٥) فهذا الوحي عام في جميع أنواعه، وذلك أن معرفة وحدانية الله تعالى ومعرفة وجوب عبادته ليست مقصورة على الوحي المختص بأولي العزم من الرسل، بل يعرف ذلك بالعقل والإلهام كما يعرف بالسمع، فإذاً القصد التنبيه أنه من المحال أن يكون رسول لا يعرف وحدانية الله تعالى ووجوب عبادته.

- **التأكيد على بشرية الأنبياء وصدق رسالاتهم:** ﴿قل: إنما أنا بشر مثلكم يوحي إليّ إنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ (الكهف: ١١٠) ﴿قل: إنما أنا بشر مثلكم يوحي إليّ، إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين، الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون﴾ (فصلت: ٦)، وقال تعالى ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم، قال: الكافرون إن هذا لساحر مبين﴾ (يونس: ٢)، ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاستلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ (النحل: ٤٣)، ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى،

^{٤١} أنظر: الوحي المحمدي، بيروت، مؤسسة عزالدين للطباعة والنشر، ط ٢، ١٣٥٢هـ، ص ٨١ وما بعدها.

أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون { (يوسف: ١٠٩).

- أمر الأنبياء باتباع ما يوحى إليهم: قال تعالى {اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين} (الأنعام: ١٠٦)، {ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين} (الزمر: ٦٥)، {وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة، وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين} (يونس: ٨٧)، {واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين} (يونس: ١٠٩)، (الأحزاب: ٢). {فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم، وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون، وسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون..} (الزخرف: ٤٣-٨٩) {قل أي شيء أكبر شهادة قل: الله شهيد بيني وبينكم، وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون ان مع الله آلهة أخرى، قل: لا أشهد، قل: إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون} (الأنعام: ١٩) {قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً، أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم} (الأنعام: ١٤٥).

تساؤلات في الموضوع: مفهوم الوحي وأثره في تطورات مفهوم السنة:

الأول: هل السنة المستقلة عن القرآن والتي لا نجد له أصلاً مباشراً فيه، أو كانت من أمور المصالح والحروب تعد وحيّاً واجب التطبيق بدون دليل مستقل أو أنها ليست كذلك لاحتمالات الخصوصية وكون الفعل إن كانت السنة فعلية صادراً عن طبع أو جبلة فقط جبلية طبيعية، أو كان بوصف النبي ﷺ إماماً أو قائداً أو نبياً أو قاضياً؟ فإن قيل: بأنها وحيّ يوحى فهل يعد التصحيح الموحى نسخاً كمثل قوله تعالى (عفا الله عنك لم أذنت لهم) وما موضع قضية إجتهد النبي ﷺ في هذا الأمر؟

الثاني: هل يعتبر كل ما صدر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير سنة موحاة وحيّاً إلهياً إليه أو هي صادرة إنشاءً وابتداءً وأصالة عنه، والوحي يوافق أو يعدل أو يغير على أساس أنه مأمور بالبيان، وأنه يقوم بأمر لا تدخل

في دائرة السنة التشريعية فيكون المستفاد منها (إباحة الأمر) أو بيان أنه غير داخل في المحذور؟ ولقد نشأ خلاف طويل بين الأصوليين حول الإباحة: أهى حكم شرعي أو حكم عقلي! ولم يخالفهم في ذلك إلا الكعبي على اعتبار الإباحة حكماً عقلياً لا شرعياً، وأصر جمهورهم على أن الإباحة حكم شرعي وعدت خامس الأحكام التكليفية واجب، حرام، مندوب، مكروه، مباح، لهذا الغرض، قالوا ان الإباحة حكم شرعي لا عقلي.

الثالث: هل ما ذهب إليه جمهرة الأصوليين أن كل ما صدر عن النبي ﷺ من فعل أو قول أو تقرير هو سنة يعني أوحيت إليه من الله تعالى وحياً للتشريع أو لبيان التشريع ودون استثناء؟ أو أنه عليه الصلاة والسلام خول مهمة البيان أحياناً بما يوحي إليه غير القرآن أو أحياناً باجتهاده عليه الصلاة والسلام؛ ثم إن سكت الوحي علمنا أنها وحي، وإلا فللوحي سلطة التعديل والتغيير والنسخ كما حدث في آيات الأسرى، وسورة (عبس وتولى)، وقضية الظهار وقضية هدم الكعبة وما جاء في معاتبته في سورة التحريم وزواج زينب ونحوها؟

الرابع: كيف يجيب الأصوليون عن هذا التمييز بين تصرفات النبي ﷺ بوصفه إماماً وبوصفه قاضياً وبوصفه قائداً وبوصفه نبياً ما الدليل عليه؟ وكيف نضع الخطوط العريضة الفاصلة فيه؟ ولم لم يحدد الأصوليون السنن بوصف كل تصرف كما حدد الصحيح والحسن والضعيف ونحوه، مثل أن يقال ان المجموعة التي قالها ﷺ في مجموعة البخاري أو غيره من المحدثين إنما قالها بوصفه إماماً، أو قاضياً أو غير ذلك حيث يساعد ذلك في تحديد عملية الفرز وأنداك سوف نعرف أن هذه السنن التي نحن مطالبون بالأخذ بها هي السنن التي تعتبر وحياً هي السنن التي لها أصول تشريعية في القرآن الكريم وما ليس له أصل في الكتاب يمكن الاستفادة منه في مجالات أخرى كالحكمة أو التوجيه القابل للتطبيق، أو اعتبارات أخرى لكن ليس له الصفة التشريعية الموحاة.

الخامس: هل حدد الأصوليون السنن التشريعية وغير التشريعية؟ قد يقال: إنهم حدّدوا ما يسمى بالمباحث المشتركة بين الكتاب والسنة، وكل مباحث اللغات أعتبرت مشتركة ثم جاءوا إلى ما يختص بالقرآن الكريم فتتبعوا بعض مباحث علوم القرآن ومنها القراءة الشاذة ونحوها، ثم جاءوا إلى السنة فأخذوا ما قاله المحدثون ووقفوا عند المباحث التي كان لائمهم فيها مواقف فعدلوها في صالح مذاهبهم وفي الباقي قبلوا تعريفاتهم في الصحيح والحسن والمشهور والمعلل والمدلس والمعنعن والمعلل وغيره...

السادس: من ينشئ الحكم إنشأً وأبتداءً ومن يكشف عنه؟ فإن قلنا: إن إنشاء الحكم يأتي من الله تعالى وأنه يتمثل بالقرآن الكريم وحده بناء على قوله تعالى {إن الحكم إلا لله} وعموم قوله تعالى {له الحكم وإليه ترجعون}

إلى غير ذلك من آيات مماثلة، فيصبح القرآن بالإطلاق منشئاً فهو قد يكشف عن الحكم أو يكل بيانه إلى النبي ﷺ، فيكون قوله {إن الحكم إلا لله} صيغة حصر نصرتها للإنشاء ويصبح القرآن الكريم هو المصدر الذي ينشأ به الحكم، ولكن من يكشف لنا عن الحكم أو يبينه! هو رسول الله ﷺ كما قال تعالى: (وأقيموا الصلاة) والرسول ﷺ يبين تفصيلاته، فهل تصبح السنة كشفاً أو إنشاءً؟ قال تعال (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) فالحاكمة هنا أصبحت لله الذي جعلها في القرآن، وأما موقف النبي ﷺ (أن أحكم بينهم بما أنزل الله..) وفي آية أخرى (بما أراك الله..) ففي حالة الإنشاء ينسب الله تعالى الحكم إلى نفسه، أما بالنسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول (بما أراك الله) فتبقى سلطة الحكم لله تعالى. وهنا نريد أن نعرف موقف الأصوليين لماذا اعتبروا السنة وحياً، هل باعتبارها منشئاً للحكم أو كاشفاً عنه؟

تنشأ الإشكالية عند الأصوليين عندما سوا بين القرآن والسنة تسوية كاملة إلا بفرقين كون القرآن معجزاً ومتعبداً به، ولذلك لا بد من مراجعة سريعة لتطورات تلك القضية. قد تكون من أوائل المحاولات المنهجية في هذا الموضوع محاولة عمر بن عبد العزيز ومن معه من الفقهاء حيث لاحظوا اختلاف المرجعية فحاولوا اتخاذ السنة بديلاً عن المذاهب الفقهية المختلفة وغلب على ظنهم أنهم بذلك يحققون الاتفاق بين المسلمين إذا اتفق المسلمون على كون السنة فقهاً فالقضاء على الخلافات يكون بتوحيد المرجعية ويتم بتوسيع مجال النص وتضييق مجال الإجهاد حيث يجعل المرجعية للنص وللرسول بدلاً من المجتهدين، لكن هذا الحل نجم عنه، وأظهر إشكاليات أخرى نتجت عن تلك التسوية أنهم اضطروا إلى أن يقولوا إن القرآن فيه نسخ وفيه تعارض واجترأ البعض بأن يقول يجوز روايته بالمعنى، والحال أنه نص معجز، وكل حرف فيه نزل من عند الله فتساهلوا في ذلك وتساهلوا بالقول بنسخ الكتاب بالسنة واضطروا للخوض في ذلك -كله- نتيجة التسوية التي أقاموها بينهما، يعني لو لم يسوا بين المصدرين لما أمكن القول أن آية سورة النور نسختها السنة بالنسبة للمحصن لتبقى نصاً في البكر فقط مع أن الألف واللام في هذه الصيغة من صيغ العموم، وهكذا لم يعد هناك منهج صارم ضابط للفهم عن الله -تعالى- وعن رسوله -صلى الله عليه وآله وسلم، وسادت تصورات ذاتية لدى كثير من الفقهاء. فالمحدثون أنفسهم حين اضطروا مع أهل الرأي وأهل الحديث أفرز ذلك سلطتين: سلطة تتبنى الرأي وسلطة أهل الحديث التي تحاول أن تلغي تدخل الرأي وتستبدله بحديث حتى لو لم يتفق على صحته أو قوته، ومن الصعب القول بوجود أحاديث صحيحة عند كل إمام كافية لتجيب عن كل التساؤلات التي تصادفه. فكون الأحاديث نسبية وكونها مرتبطة بعصر النبي ﷺ في جملتها تطبيقاً أمر ممكن وتكون الأحاديث المطلقة تلك المتصلة بالقرآن الكريم اتصالاً مباشراً.

ولذلك فلا بد من تحديد مفهوم الوحي بدقة لان التساهل فيه هو الذي فتح علينا أبواب الشك، وتحديد سوف يغلقها بإذن الله كما حدث في الفصل الثام بين صفات الله سبحانه وصفات عباده فسدت أبواب الشك، وعلى هذا فتبدأ عمليات التحديد بما يلي:

- **تأكيد القرآن على بشرية النبي ﷺ** يحمل معنى هاماً مضافاً إلى المعاني المبينة في هذا المجال وهو أنه أراد سبحانه أن يضع فاصلاً بين الله تعالى وبين نبيه ﷺ قال تعالى {إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً} الكهف: ١١٠ وقد أكد ﷺ هذا في قوله (إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد في مكة..٤٢).

- **تأكيد الفصل بين القرآن الكريم والسنة النبوية** فليست السنة بحاجة إلى العلو والإرتفاع إلى القرآن أو العكس، قال تعالى {وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا أتت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن اتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم، قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله، أفلا تعقلون} (يونس: ١٥)؛ فالعلاقة بينهما علاقة تكاملية تحمل معاني الشمولية والمرونة باعتبار القرآن النص المنشئ للأحكام والتشريعات والسنة مبينة شارحة له مطبقة لتشريعاته في أرض الواقع الإنساني وهذا النوع من العلاقة يفتح ويسمح بالتكاملية بين الاثنين دون خلط أو تشويش.

- **تفصيل الفروق بين الكتاب والسنة وعدم حصرها في الإعجاز والتعبد فحسب:**

إن الخلط في الأدوار أدى إلى الخلط بالمرتبة أو المكانة مما ساعد على إلغاء الخط الفاصل بين القرآن والسنة فلا بد من توضيح الفروق الكبيرة والمهمة بين القرآن والسنة فالرسول ﷺ أمر بالإتباع والتلاوة والقراءة كما أنزلت عليه فهو ﷺ كان متشدداً في النقل والتلاوة بدقة كما أنزلت ولقد عرض عليه القرآن الكريم مرتين في آخر سنة من حياته وكان يحرص على أن يكون كتبه الوحي قريين منه لكتابة ما أنزل إليه مباشرة. أما في كتابة سنته فلقد نهي عن كتابتها على العموم ورخص للبعض من الصحابة لخصوصية معينة، ولم يحرص الصحابة أو يشعروا أنهم مأمورون بنقل وكتابة السنة كما كان الموقف مع القرآن الكريم، فلم يحرصوا على نقل الأحاديث بذات الدقة التي نقل فيها القرآن، بالإضافة إلى أنها رويت في جملتها بالمعنى بدليل أن الأئمة إلى الآن مختلفون في أحكام بعض الأفعال بالرغم من

^{٤٢} سبق تخريجه.

تكرارها يومياً من يوم أن شرعت مثل الأذان وبعض أفعال الصلاة ونحوها؛ ألا يعني هذا أن السنة ليست نصاً موازياً للقرآن وإنما هي بيان تدور حوله حيثما دار!

اجتهاد النبي^{٤٣}: إذا أدرج النبي ﷺ مع المجتهدين فكيف نفرق بين دوره كمجتهد في قضية ما وبين دوره باعتباره ناقلاً لوحي موحى إليه^{٤٤}؟ وكيف نفسر أقواله:

- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُنْتُ قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ لُحُومِ الْأَضَاحِيِّ فَوْقَ ثَلَاثٍ فَأَمْسِكُوا مَا بَدَا لَكُمْ وَنَهَيْتُكُمْ عَنِ النَّبِيدِ إِلَّا فِي سِقَاءٍ فَاشْرَبُوا فِي الْأَسْقِيَةِ كُلِّهَا وَلَا تَشْرَبُوا مُسْكِرًا^{٤٥}، عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكَ حَدِيثُو عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ أَوْ قَالَ بِكُفْرٍ لَأَنْفَقْتُ كَنْزَ الْكَعْبَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَجَعَلْتُ بِأَبْهَامَا بِالْأَرْضِ وَلَا دَخَلْتُ فِيهَا مِنَ الْحِجْرِ^{٤٦} هذه قضية تعبدية تتعلق بالطواف. فماذا نقول بمثل هذه الأحاديث أيهما وحي، الأول أو الثاني.

- قضية قتل ابن سلول حين قال عليه الصلاة والسلام لا أريد أن يتحدث الناس أن مُحَمَّدًا يقتل أصحابه) ثم يحاول عليه الصلاة والسلام أن يستغفر ويصلي عليه عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ لَمَّا تُؤَيِّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ قَمِيصَهُ يُكْفِنُ فِيهِ أَبَاهُ فَأَعْطَاهُ ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِثَوْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ رَبُّكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا حَيَّرَنِي اللَّهُ فَقَالَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً وَسَأَزِيدُهُ عَلَى السَّبْعِينَ قَالَ إِنَّهُ مُنَافِقٌ قَالَ فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تُقُمْ عَلَى قَبْرِهِ، إِنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ

^{٤٣} أنظر: المحصول في علم أصول الفقه، مرجع سابق، ج ٦، ص ٧ وما بعدها.

^{٤٤} لقد بين القراني (ت ٦٨٢) الفرق في بحثه المهم الأحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، ولقد حقق هذا الكتاب عدد من العلماء ونشر عدة مرات منها: طبعة الأزهر-القاهرة، تحقيق: أبي بكر عبد الرزاق، المكتب الثقافى للنشر والتوزيع، ١٩٨٩م، الطبعة الأولى.

^{٤٥} رواه مسلم، رقم الحديث: ٣٦٥١.

^{٤٦} رواه مسلم، رقم الحديث ٢٣٦٩.

ورسوله وماتوا وهم فاسقون} (التوبة: ٨٤)^{٤٧}. فكيف يكون الاثنان وحيًا؟ قد يقولون: أنه فوض عليه الصلاة والسلام في الحروب والمصالح، فنقول: صفوا لنا الحد الفاصل بين ما هو وحي وما ليس بوحى، وبين ما هو مفوض فيه وما هو غير ذلك.

وهكذا فقد أضيف إلى مفهوم الوحي تعقيدات كثيرة أخرجت هذا المفهوم من وضوحه وبيان معانيه القرآنية إلى التعقيد حين لم تلتزم البشرية بمعاني مفهوم الوحي والنبوة بالهدي القرآني البين السليم، فكثير من الأمم والطوائف جحدوا بالوحي والنبوة وإن استيقنتها قلوبهم، والمسلمون خاصة المعنيون بالفلسفة من علمائهم ذهبوا في محاولة الولوج الى معاني المفهوم مذاهب شتى انطلاقاً من ضرورة إيجاد توافق بين النقل والعقل. ولذلك فإننا نرى ضرورة الامام ببعض ما ذكره مما اعتبر "نظرية لهم في النبوة" أو "نظرية في الوحي" وعالم الاتصال بين السماء والأرض، كل ذلك لنؤكد على أهمية الكشف عن مضامين تلك المفاهيم في محاولة للعودة إلى معانيها القرآنية:

تأزم فكري تاريخي في استيعاب مفاهيم الوحي والنبوة:

لقد اغتر بعض البشر بعقولهم، وظنوا أنها قادرة على أن تغنيهم بمعارفها وطاقاتها عن " الوحي الإلهي"، أليست عقول البشر قادرة على التمييز بين النافع والضار؟ أليست قادرة على ادراك حسن الأشياء وقبحها؟ أليست قادرة على تحصيل السعادتين؟ وتحقيق الحسنيين لصاحبها؟ فلم لا يعطى الإنسان حق الاستغناء بعقله عن الوحي والنبوة؟ وبذلك يكون الانسان مركز الكون، ويكون عقله مركز المركز! الى ذلك ذهب البراهمة من الهنود^{٤٨} وتأثر بما ذهبوا اليه بعض ملاحدة المسلمين نحو محمد بن زكريا الرازي- الطيب- وابن الراوندي فزعموا امكانية استغناء الإنسان بعقله عن الوحي والنبوة، وبذلك أنكروا كون الوحي مصدراً للمعرفة، والنبوة مصدراً لتعليم الكتاب والحكمة، وغفلوا عن التلازم بين النبوة والوحي والمعجزة، وكلها أمور غيبية لا يمكن لمن لا يتقبل الغيب في الجملة أن يتقبل شيئاً منها،

^{٤٧} رواه البخاري: رقم الحديث، ٤٣٠٢.

^{٤٨} يمكن مراجعة تفاصيل مذهب البراهمة في رفض النبوات ونفي الوحي في: الباقلاني، التمهيد، بيروت، المكتبة

الشرقية، ١٩٥٧م، الباب التاسع، ص ١٠٥ وما بعدها.

- الجويني، الإرشاد، ص ٣٠٢ وما بعدها.

- د. إبراهيم مذكور، الفلسفة الاسلامية: منهج وتطبيق، ط ١٩٤٧م، ص ٩٤ وما بعدها.

أما التلازم بينها فيبدو واضحاً حين ندرك أنه لا نبوة بدون وحي، ولا يثبت الوحي للإنسان إلا بالتحدي والمعجزة، وقلنا: للإنسان لأن ثبوته بذاته من شأن العليم الحكيم وسواء اقترن بالمعجزة أم لم يقترن فهو عنده -جل شأنه- وحي.

ولقد ظهرت حركة نفي النبوة قديماً وتزعمها في عصر النبي ﷺ أبو جهل، وأعرب عن دوافعه لنفيها - بوضوح- حين قال: "لقد تنافسنا نحن وبنو هاشم فكان...، ولكن محمداً ابن ابن كبشة جاء ليقول: إني أتلقى الوحي من السماء فأني هذا! وحركة مقارنة الوحي بما ليس بوحى تزعمها في عصره عليه الصلاة والسلام الوليد بن المغيرة الذي جاء فيه قوله تعالى: {إنه فكر وقدر.. فقتل كيف قدر} (المدثر: ١٩). أما بعد عصر الترجمة والتدوين فقد برزت مجموعات زندقة وإلحاد وانحرافات، كما برزت اتجاهات فلسفية تعددت وتنوعت وقدمت نفسها بأشكال مختلفة. فهناك من ناقش حقيقة الموجودات من الإنسان والحيوان والشجر والجماد وزعم أن هذا كلها ليست إلا أعراضاً لا حقيقة لها، ووجودها كلها صوري وتخيل، حتى نقل عن النظام "انه قرر يوماً في مجلس درسه هذا القول بين تلامذته فضربه أحدهم، ولما بدا عليه الاستياء قال له تلميذه: إن ما قررت من كوني أنا مع سائر الموجودات لسنا سوى أعراض تتغير في كل جزء من أجزاء اللحظة دفعني لضربك لمعرفة ما إذا كان قولك حقاً وعليه يكون قد ذهب الضارب والمضروب، وإذا كان باطلاً، وهذا ما ينبه إليه استياؤك اعتذرت لك واعتذرت عن قولك"^{٤٩}، والقائلون بالأعراض لا يرون فرقاً بين معجزات الأنبياء وأعمال السحرة والكهانة^{٥٠}.

مذهب الرازي وابن الراوندي: لم تكن المجاهرة بنفي النبوة والوحي والمعجزة قد برزت واشتهرت وأصبحت موضوعاً تكتب فيه الكتب قبل أبي بكر الرازي^{٥١} الذي ولد سنة ٢٥٠ هـ بمدينة الريّ حيث درس فيها مختلف أنواع العلوم حتى بلغ سنّاً خاصة يتوقع في مثلها العطاء اتجه لدراسة الطب فنبح فيه بين معاصريه حتى عرف أنه أكبر طبيب في الإسلام، كما نبغ في الفلسفة، وحرص على أن يلقب بالفيلسوف، وهاجم أرسطو وخرج على نظرياته الطبيعية والميتافيزيقية، وأنكر على من عرفوا بفلاسفة الإسلام محاولات التوفيق بين الدين والفلسفة. وتبنى كثيراً من آراء

^{٤٩} ابن تيمية، النبوات، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٥م.

^{٥٠} المرجع السابق.

^{٥١} أنظر ترجمته عند ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ) في طبقات الأطباء، مصر، طبعة سنة ١٣٢١هـ.

المزدكية والمانوية وعقائد الهند، وهاجم الأديان وانتصر للفلسفة، فالدين - في نظره - مدعاة للحروب والصراع بين الناس، والفلسفة سبيل الصلاح والرقي. وقد اشتهر له كتابان كتاب "نقض الأديان أو في النبوات" و "مخاريق الأنبياء أوحيل المتنبيين" الذي تنبته القرامطة^{٥٢}. وقد قال فيها: "بان الأنبياء لا حق لهم في أن يدعوا لانفسهم ميزة خاصة عقلية كانت أو روحية، فإن الناس كلهم سواسية وعدل الله وحكمته تقتضي أن لا يمتاز واحد على الآخر". وأما معجزات الأنبياء فهي -عنده- أقاصيص مختلقة إن دلت على شئ فإنما تدل على مهارة في التغرير والتضليل، وتعاليم النبيين - في نظره - متناقضة يهدم بعضها بعضاً، وتتناقض مع المبدأ القائل بوجود حقيقة ثابتة. فكل نبي - في نظره - يلغي رسالة سابقة - في نظره - يلغي رسالة سابقة، وينادي بأن ما جاء به هو الحق ولا حق سواه. والأديان - في جملتها عنده - أصل الحروب التي وقعت فيها الإنسانية من قديم، والنبوة عدو -عنده- للفلسفة والعلم، ومؤلفات القدامى أمثال أبقراط وأقليدس وأفلاطون وأرسطو أنفع لديه من الكتب السماوية.

وأما ابن الراوندي: فهو شخصية من أغرب الشخصيات في تاريخنا الفكري وأكثرها تعقيداً وغموضاً، لا يعرف له تاريخ مولد، ولا تاريخ وفاة، ويرجح أنه نشأ في راوند قرب أصبهان، وكان من أصل يهودي، وأنه سكن بغداد، واتصل بالمعتزلة وكان من حذاقهم وقد عدّه المرتضى من بين طبقتهم الثامنة لكنه خرج عليهم لاسباب غير معروفة، وحمل عليهم، ثم تجاوزهم ليحمل على الإسلام وتعاليمه حملة شملت جل تعاليمه. ولشدة عدائه للمسلمين والإسلام صار يستأجر من قبل الملحدون لمهاجمة الإسلام وتعاليمه بصفة خاصة والأديان السماوية بصفة عامة. وينقل صاحب "معاهد التنصيص" قصة طريفة: أن بعض عقلاء اليهود قد حذروا المسلمين منه، وقالوا لهم: "ليفسدن عليكم هذا كتابكم كما أفسد أبوه التوراة علينا". وقد بقيت كتبه مجهولة يذكر اسماءها بعض المترجمين له، لكنها غير موجودة أو متداولة حتى كشف المستشرق "كراوس" عن "الزمردة" أو أجزاء منها ضمن مخطوطة "المجالس المؤيدية" من المخطوطات الإسماعيلية، وهي المجالس المنسوبة الى المؤيد في الدين هبة الله بن أبي عمران الشيرازي - داعي الدعاة الإسماعيلية أيام الخليفة الفاطمي المنتصر بالله. وهذه المجالس عبارة عن محاضرات أو ندوات تعالج فيها القضايا الفكرية والفلسفية المطروحة. وقد احتلت أقوال ابن الراوندي في زمردته مجالس ستة من تلك المجالس فعرضت أهم أقوال ابن الراوندي في النبوة والوحي ورد عليها. وقد نشرها كرواس مترجمة الى الالمانية (سنة ١٩٣٤م).

^{٥٢} أنظر: د. ابراهيم بيومي مذكور، الفلسفة الإسلامية، منهج وتطبيقه، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٦م.

وتتلخص أفكار ابن الراوندي في "إنكار النبوات عامة ونبوة مُحَمَّد ﷺ خاصة، وسخريته ونقده للعبادات الإسلامية، ورفضه بسخرية وتهكم للمعجزات في جملتها، وتأكيده على عدم الحاجة للرسول والأنبياء... وقد تصدى للرد على مهاراته كثير من العلماء من مختلف الطوائف والفرق ومنهم المعتزلة والاسماعيليون الذين ادعى انتسابه اليهم، ومن الكتب التي ردت عليه بشكل متميز "كتاب أعلام النبوة" لابي حاتم الرازي الإسماعيلي، كما رد عليه الجيائيان أبو علي (ت ٣٠٣هـ) وابنه أبو هاشم (٣٢٤هـ)، وأبو الحسن الأشعري (ت ٣٢٤هـ)، وكذلك رد مُحَمَّد بن الهيثم (ت ٤٣٠هـ) الفلكي والرياضي المعروف، وكذلك رد عليه الفارابي الذي أجهد نفسه في أن يقيم النبوة على دعائم عقلية ويفسرها تفسيراً علمياً، ويبين ضرورة الرسول المشرع للحاجات السياسية والاجتماعية للأمة.

وإذا كانت البشرية قد شهدت أولئك الذين أنكروا وجود حاجة إلى الوحي، فهناك من بالغوا وتوسعوا في اعتبار الوحي مصدراً لسائر أنواع المعارف، ومنها أمور الصناعة والزراعة والحرف والفنون والأدوية والعقاقير وغيرها بحجة أن في كل شئ من هذه الأشياء جانب خير وجانب شر، ومهمة الأنبياء الحث على الخير، والنهي عن الشر، وحماية الناس منه^{٥٣}، ومن هنا اتجه الكعبي نحو إنكار المباح^{٥٤}. "وإذا كان كثير من المتكلمين المسلمين قد أدخلوا في نطاق النبوة ما هو خارج عن نطاقها فقد ألح الفلاسفة الإسلاميون كالفارابي وابن سينا في إبراز وظيفة النبي السياسية والاجتماعية. ويتبع الفارابي في ذلك من عرفوا "بفلسفة الإسلام" في الشرق والغرب^{٥٥}. فالفارابي - وإن لم يهمل الجانب الأخروي - إلا أن اهتمامه قد انصب على بيان حاجة المجتمع والمدينة الفاضلة إلى مشروع ينظم علاقات الناس الدنيوية، ويسمو بالأخلاق، وهذا المشرع هو "النبي". وبذلك قرب النبوة والنبي - في ظنه - إلى الناس وصارا

^{٥٣} فراجع الفصل لابن حزم: (٧٢/١-٧٣) والأرشاد للجويني ص ٣٠٤، والأقتصاد في الاعتقاد ص ٨٩ والمنقذ من الضلال وكلاهما للإمام الغزالي ص ٩٧ وتبصرة الأدلة للنسفي وتجريد الاعتقاد للطوسي ص ١٩٣، والمحصول للرازي، ص ١٥٦-١٥٧.

^{٥٤} راجع نظرية النبوة عند الفارابي في كتاب "الفلسفة الإسلامية" للدكتور مدكور، فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية ص ٥٤٩.

- الفخر الرازي، المحصول في علم الأصول، مرجع سابق.

^{٥٥} المرجع السابق.

معقولين وتابعه على ذلك ابن سينا أي في ضرورة وجود "المشرع" النبي، لكنه لم يقل بالمدينة الفاضلة، وتوسع في الجانب الأخرى^{٥٦}.

الفارابي ونظرية الفيض^{٥٧}

وتعتبر "نظرية الفيض" التي جاء الفارابي بها محاولة منه لمقاربة الفكر الفلسفي، لكن "نظرية الفيض" هذه تحول "الوحي" إلى ضرب من الخيال، والنبي إلى رجل ذي مخيلة قوية متينة لديها من الاستعدادات ما يجعلها قادرة على الاتصال بهذا الذي سماه "بالعقل الفعال" الذي يفيض عليها من فاعليته ما يجعلها قادرة على ادراك الغيب: فالمخيلة البشرية- في نظر الفارابي- لديها قدرة على حفظ صور المحسوسات الخارجية التي تنقل الحواس الإنسانية صورها إلى المخيلة لحفظها، فالمنظر الذي تراه أو الشخص الذي تقابله تصوره حواسك وتودع صورته في مخيلتك حتى إذا التقيته مرة أخرى تذكرته باستدعاء الصورة المخزونة في مخيلتك. وهذه إلى الحس المشترك، وعندئذ تنفعل العين بما فترتسم فيها، ثم يتولد عما ارتسم في العين رسوم تنتشر في الهواء المضيئ والمتصل بشعاع البصر. وينتج عن هذا أن

^{٥٦} راجع: الإشارات والتنبيهات ط الخيرية: (١٠٥/٢)، ورسالة إثبات النبوات ضمن كتاب رسائل في الحكمة

والطبيعات ص ١٢٤، والشفاء بالأهليات، والبخاري (٣٠٤) وفخر الدين الرازي وأراؤه الكلامية ص ٥٤٩.

^{٥٧} ويبدو أن ماركس ومن إليه قد استفادوا من الفريقتين وأفكارهم فاستفادوا الاحاد والسخرية بالنبوة والأنبياء من نحو الرازي الطبيب وأبن الراوندي ونحوهما من الملحدون الذين عاشوا بين المسلمين في إطار الكيان الاجتماعي الإسلامي، كما استفادوا من "نظرية الفيض" لكنهم أعطوها "التفسير المادي" فزعموا أن ضغوط المادة والحاجات المادية والرغبات الإنسانية تنعكس على دماغ إنسان ذكي قد يكون عبقرياً، أو هو شديد الذكاء فتولد من خلال شدة ضغطها عليه عنده الرغبة في ادعاء شئ غيبي يسمح له بالاستيلاء على مشاعر الجماهير وقيادتها لتحقيق طموحاته وحاجاته، وذلك هو التفسير الماركسي للنبوة. وقد أخذ بذلك كل من تبنوا "النموذج العلماني" المعادي للدين. فالعلمانيون المحدثون نوعان:

نوع يرى للدين وظيفة إيجابية في حياة الجماهير إذا طبق في إطار تعديدي فردي، ووظف لدفع الأفراد إلى ممارسات من شأنها خدمة المجتمع وتكريس ودعم النظام العام.

وقسم يلحد بالدين، ويرى ضرورة تنحيته عن كل شئ في الحياة فهو "أفيون الشعوب"، وتجب التضحية بفوائده إذ انها في نظرهم أقل بكثير من أضراره وسلبياته. واليسار العربي قد انقسم إلى هذين الفصيلين بدوره: ففصل ماركسي أركسوا بما كسبوا فألحدوا. وفريق آخر فسر النبوة بالعبقرية و"الكرزما" والزعامة السياسية، وبرزوا هذا الجانب من صفات النبي ﷺ وأدعوا إرثه والأنتماء إليه، وخذعوا الجماهير المسلمة لتسير خلفهم في ذلك، كما فعل ميشيل عفلق في كتاباته (ذكرى الرسول العربي) وغيره من كتبه.

تتأثر العين من جديد بهذه الصور المنتشرة في الهواء: فيرى الإنسان أشخاصاً في الخارج لا وجود حقيقي لهم، لأنهم ليسوا في الحقيقة أكثر من صور نابعة من مخيلته. وابن سينا قد حذا حذو الفارابي في "نظرية الفيض" وفي النتائج التي ترتبت عليها: من تجويز رؤية النبي لصور الملائكة بعينيه ومخاطبته لها، وتلقيه الوحي عنها، وتكون صور هذه الملائكة التي اعتقدها قد شكلتها مخيلته، من غير أن يكون لها وجود فعلي في الخارج^{٥٨}. والمختارون من البشر هم أولئك الذين تتساوى عندهم أوقات اليقظة وأوقات النوم فتصعد مخيلتهم إلى العقل الفعال في النهار وفي حال اليقظة، كما تصعد إليه في الليل وفي حالة النوم، وهؤلاء هم الأنبياء، وما تراه مخيلاتهم في حال اليقظة هو "الوحي"^{٥٩}. والذي حمل الفارابي والفلاسفة على هذا استبعاد العقول المتفلسفة للغيب بمفهومه الديني، فهم يعملون على تقريبه إلى العقلية ليكون الإيمان به مقبولاً ومعقولاً فلسفياً، وممكناً ولا يخرج على المبادئ المنطقية المقررة لديهم. وأما السبب الآخر فهو أن الناس إذا تساوا في استجماع الشروط، وارتفاع الموانع، وسلامة الآلات فينبغي أن يتساوا في إدراك المدركات، إذ لا يعقل أن يختص بهذا الإدراك واحد من دون الآخرين مع كل ما ذكرنا^{٦٠}.

أما ابن رشد فقد كان أقرب إلى الدقة والوضوح في إدراكه لمفهوم النبوة في الإسلام حين أوضح أن التشريعات التي تفضي إلى سعادة الناس في الدنيا والآخرة لا تكون إلا بعد معرفة الله، وجوهر النفس الإنسانية، وأسباب سعادتها وشقيقتها. وبما أن الناس يجهلون هذه الأشياء أو على الأقل لا يعرفونها معرفة حقة وجب أن تكون الشرائع عن طريق الوحي؛ والاتيان بهذه الشرائع هي ميزة النبوة والغرض الأساسي منها^{٦١}.

وقد حمل ابن تيمية في كتابه "النبوات" وفي الفتاوى على مذهب الفلاسفة من المسلمين في تفسيرهم للوحي والنبوة، حيث حاولوا مقارنة اتجاه الفلاسفة الآخرين في "المفهومين" الوحي والنبوة" ومما قاله: يقولون: (أي الفارابي

^{٥٨} ابن سينا، الإشارات والتنبيهات، ٨٦٣/٢. وأحوال النفس، ص ١١٤، الفلسفة الإسلامية، ص ١٢٤-١٢٨.

^{٥٩} أنظر: آراء أهل المدينة الفاضلة، ص ٦٨-٧٦.

٢- الفلسفة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٨٦-٩١، ١٢١.

٣- د. محمود قاسم، الفيلسوف المفترى عليه: ابن رشد، ص ١٣٨-١٣٩.

^{٦٠} راجع المباحث المشرقية، ٤١٩/٢.

^{٦١} راجع: مناهج الأدلة، ص ٢١٥ وما بعدها.

- د. محمود قاسم، الفيلسوف المفترى عليه: ابن رشد، ص ١٣٨-١٤٢.

- فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية، ص ٥٥٠.

وابن سينا) هذا القرآن كلام الله، وهذا الذي جاءت به الرسل كلام الله ، ولكن المعنى (أي لديهم) أنه "فاض" على نفس النبي -ﷺ- من العقل الفعال، وربما قالوا: إن العقل الفعال هو جبريل -عليه السلام- الذي ليس على الغيب بضنين أي بخيل، لانه فياض ويقولون: إن الله كلم موسى من سماء عقله... وغيرها وإنما هو خلط وتخبط^{٦٢}.

لقد آمن سلف هذه الأمة بالوحي والنبوة القائمة عليه باعتباره جزءا من الإيمان بالغيب الذي تلقوه بالقبول بعد التحدي والإعجاز، وبثبوت العجز الإنساني عن الإتيان بمثل القرآن المجيد أو بمثل عشر سور أو بمثل سورة واحدة، ولم يشعروا آنذاك -أنهم بحاجة إلى تفسير الوحي أو إعادة تقديمه بشكل يتقبله العقل الفلسفي^{٦٣}، وربما العقل التجريبي في أيامنا هذه.

الخاتمة

ولقد شكل رصيد التجارب الإنسانية المتعددة المتنوعة المشرب بتراث النبوات خيرة تاريخية ساعدت على تكوين وتطوير العقل الإنساني وتمكينه من تلبية حاجاته الحياتية في ظروفه المتغيرة وقد هباً ذلك كله -فيما بعد- لقبول مبدأ تلقي الشرعة والمنهاج، فقد كانت أشد العقبات أمام الإنسان لتحقيق مفهوم "الخلافة" عدم قدرته على الحصول -بهداية عقله فقط- على المنهج الموضوعي الكامل من داخله سواء أكان منهجا لتفكيره أو لمعرفته أو لتحديد علاقته بالكون والحياة وخالقه وخالقهما تحديداً دقيقاً، أو كان لسوى ذلك. فطبيعة الإنسان ووضع العقل والنفسى ومحدوديته ونسبيته وتفكيره وخبراته المحدودة بعوامل الزمان والمكان والبيئة المحيطة به، كلها لا تسمح له بالتجرد التام الذي يمكنه من وضع المنهج المعياري الثابت لتفكيره ومعارفه وتصوراته وعقيدته ونظم حياته وتشريعاته من داخله فالضعف والوهن والنقص العلمي والنسبية تحد من قدرته على تحقيق ذلك، ولقد تمكن الإنسان في الماضي والحاضر من وضع جملة من القوانين والقواعد، وبنى كثيراً من المعالم الحضارية، لكن عجزه وعدم قدرته على الوصول لإسباب الهداية والأخذ بها وإدراك بعد الغيب في الواقع على الوجه الصحيح وفهم علاقته به وبالوجود كان وراء انهيار كثير من الحضارات وتراجعها. ذلك أن منهج العلم والعمل في هذا الكون، الصالح لتزويد الإنسان بالهداية المطلوبة لا يمكن أن يأتي به بشكله المتصف بالصحة المطلقة إلا خالق الإنسان والكون والحياة وهو الله -سبحانه-

^{٦٢} ابن تيمية، الفتاوى، المجلد الثاني عشر، و٢٣، ٢٤، ٢٩، ٣١ ..

^{٦٣} أنظر: الفلسفة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٩٢-٩٣.

فالإنسان لا يستطيع أن يجعل من نفسه مصدراً لمعرفته -كلها-، أو بكل أنواعها، فهناك معارف لا بد أن تأتي للإنسان من مصدرها المتعالي المتجاوز للإنسان، فليس الإنسان سيد الكون المطلق أو خالقه بل هو مستخلف فيه. ومن هنا كانت سنة وسيرة رسول الله ﷺ تمثل نبزاً للبشرية في كونها التجربة الكبرى المشتملة على تجارب سائر النبيين والمرسلين، وسنته وسيرته هي السنة الكبرى والسيرة الشاملة. فسيرته وسنته تمثل كل سنن وسير الأنبياء الذين سبقوه: فنرى فيها نوحاً وصبره ومثابرتة، وإبراهيم وجهاده وتبته وطاعته، وموسى وكفاحه وحرصه على قومه، وعيسى وزهده وكفاحه لربط قومه بحقائق الدين، لا بمظاهرة وقشوره، فالقرآن خلاصة الوحي الإلهي، والسنة خلاصة سنن الأنبياء وتجاربهم مع أقوامهم قال تعالى: {يا بني آدم إما ياتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن أتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون} (الأعراف: ٣٥). {يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم} (المؤمنون: ٥١). {يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شئ قدير} (المائدة: ١٩)، {قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن اتبع إلا ما يوحى إليّ وما أنا إلا نذير مبين. قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين} (الأحقاف: ٩١٠)، {فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم...} (الأحقاف: ٣٥)... فالقرآن والسنة -بهذا الاعتبار- قادران على التمكين لقوافل الساجدين من البشر، وحمائتهم من محاولات إبليس وحزبه في ضمهم إلى موكب الرافضين للرسول. من هنا تصبح القراءات التجزيئية للكتاب وللجنة قراءات خطيرة إذا لم تربط بالكلية والقيم والمقاصد العليا.